





سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تراثنا

عبد الوشقي إفريقيّة

تأليف
أحمد حمود العمري

ترجمة
محمد أمين عبد الله

تعريف

اطلع كثير من أصدقائي على مخطوط هذا الكتاب من قبل أن يأخذ شكله النهائي ، وقد قدموا إلى بعضاً من مقترحاتهم وآرائهم القيحة ، وإلى ثم مدين بذلك :

وأشكر أستاذي عزت عزيز عبده بوزارة الإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة انصائحهم المقيمة الخاصة بالأسلوب ؛ وصاديقى عبد المنعم المجاينى بمركز الأبحاث الزراعية فى عمان على مقترحاته الطيبة التى بدوتها ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور .

وأخص بالشكر الكثير السيدة بنية البوسعيدى ، فقد كتبت على الآلة الكاتبة النصف الثانى من النسخة الخطية الأولى للكتاب ، وكأنا السيدة إيلين بالمر ، التى نسخت مخطوط الكتاب كله بعد إجراء بعض التعديلات عليه .
وفى النهاية أشكر ابنتى ماجدة ، وقد سألت أمها يوماً ، فقالت ، يا أمه ، ما الذى سيفعله أبى لو أن الورق نفذ من العالم .

أحمد حمود المعمرى

مايو ١٩٧٩

نيودلهى

تقديم

تشغل سلطنة عمان معظم الجزء الشرقي من الجزيرة العربية ، وتحدها مياه المحيط الهندي والخليج من جانبيين ، وتحيط بها رمال الصحراء من جانب آخر .

و عمان ليست أرضاً قاحلة كباقي بعض أجزاء الجزيرة العربية ، ففيها مصادر للمياه ، وإن كانت متواضعة ، على جانبي الجبل الأخضر ، وقد عمل الشعب العماني ، عبر أجيال عديدة ، على زيادة الكميات المتاحة من المياه عن طريق أنظمة دقيقة للري ، ولهذا فإن حوالي ثلثي السكان يعتمدون على الزراعة ، التي كانت المصدر الرئيسي لمعيشتهم طوال قرون عديدة .

ويعتبر الموقع الجغرافي المصدر الثاني الرئيسي من مصادر تشكيل التاريخ العماني ، فالشريط الساحلي لعمان يمتد لمسافة ١٧٠٠ كيلو متر على المحيط الهندي ، وتمر على طول هذا الساحل السفن المتجهة من الهند إلى إفريقيا ، ومن الهند إلى الخليج ، أو المتجهة إلى الهند .

ولم يكن عجباً أن تلعب الرحلات البحرية دوراً كبيراً في ماضي عمان ، ولم يكن البحارة الرحالة العمانيون طوال ما لا يقل عن خمسة آلاف عام ، بغرباء على الهند ، والخليج ، وشرقي إفريقيا .

ونظراً لكون عمان ركناً خصباً في الجزيرة العربية ، رغم أن الصحراء تفصلها عن معظم شبه الجزيرة العربية ، فقد كانت تربطها صلات بالشرق والغرب ، وكان لها تاريخ عريق . وقد تطورت بها ثقافة فريدة تأثرت بأرجاء عديدة ، لكن جذورها صادرة في تاريخ الجزيرة العربية .

ويعود استيطان عمان إلى العصر الحجري . كما ترجح الدلائل الأولى للنشاط الإنساني في السلطنة إلى ٣٠ ألف عام قبل الميلاد على الأقل . ومنذ

عشرة آلاف عام ، توفرت المياه فيما يعرف الآن بالأطراف (الحواف)
الصحراوية لعمان . وقد خلف الصيادون الذين استوطنوها آثاراً تدل
عليهم ، خاصة الأدوات الحجرية الدقيقة الصنع التي تصنف ضمن أكثر
الأدوات تطوراً مما كان معروفاً عند إنسان ما قبل التاريخ .

ويجترأول دليل على اشتغال العمانيين بالبحر ، قديماً قدم آلاف عام الثالث
قبل الميلاد ، ففي ذلك الوقت (تبعاً للكتابات المسماة) تعردت سفن ماجان (عمان)
أن ترسو بانتظام في أور « Ux » ، وفي أجزاء أخرى من بلاد ما بين النهرين
السومرية ، تحمل النحاس ، والديوريت (صخر بركاني متبلور) ، والمرمر ،
والبصل ، والأخشاب .

وكان أقدم إسم مدون لعمان .. حوالي ثلاثة آلاف عام بد ذلك -
هو « مزون » ، ولا يوجد شك لدى الباحثين في أن « سفن ماجان » ،
قد وجدت في المنطقة الواقعة عند مدخل الخليج ، وأن عمان كانت مركزاً
لها . وتعتبر رحلات هذه السفن أقدم تجارة بحرية لمسافات طويلة في
تاريخ العالم .

وما زال التاريخ العماني القديم في أولى مراحلها - والذي يحوطه الغموض -
يمثل تحدياً للمراقب المدقق . فمن هم الناس الذين بنوا المقابر الحجرية
المترابطة كـ « خلايا النحل » ؟ . ومن هم الذين تركوا هذه القطع الحجرية
التي عثر عليها في الخليجان الصغيرة على طول الساحل ؟ . ومن هم الذين
استخدموا الأدوات المصنوعة من الحجارة التي عثر عليها في رأس الحصن .
وأى نوع من الحضارة تلك التي اعتمدت على هذه القنوات والأنظمة
القديمة للري ؟ .

إن بقايا الأواني الخزفية التي عثر عليها قرب مسقط ، وقرب السيب
في وادي الجزى ، وقرب عبرى ، توضح أن عمان كانت جزءاً من

حضارة امتدت عبر فارس ، وإلى ما يعرف الآن بأفغانستان ، وبلوشستان ،
وغرب باكستان ، في الألف عام الثالث قبل الميلاد .

ولقد عثر في عام ١٩٧١م على خنجر من البرونز قرب عبري تم التوصل
بعد فحصه إلى أنه صنع في القرن الثاني قبل الميلاد ، وأنه فارسي الأصل .

وتمحدث أسطورة تحيط باسم مزون إلى ما يشير إلى أن جزءاً من عمان
كان ضمن حضارة ذات أصول فارسية .

ومما لا شك فيه أن أنظمة الري في شمال ووسط عمان ترجع إلى
أصل فارسي ، يعود تاريخه على الأرجح إلى عصر الإمبراطورية التي
أسسها سايروس الأكبر .

وإن القرب الوثيق لعمان من جنوب إيران يجعل من المنطقي تصور
أن عمان كانت لها روابط تاريخية مع فارس .

وما زالت عمان تطوى أسرار ماضيها ، ولولا تلك السنوات من العمل
الميداني الدؤوب والصبور في التنقيب عن الآثار ، وإلى أن يتم تحليل نتائج
هذا العمل ، فلن يكون أمامنا سوى الاعتماد على ما تم العثور عليه حتى
الآن ، نتيجة عمليات التنقيب .

ونقاء كانت ظفار - المنطقة الجنوبية - حتى نهاية الألف عام الأولى
قبل الميلاد ، أهم مركز للنشاط التجاري . وأهم منتجاتها البخور ، وكذلك
اللبان الذي كانت له قيمة عالية في العصور القديمة كعقار ، ودواء ذي رائحة
عطرية .

وطالما كانت ظفار - تنتج أحسن البخور - وكانت أهم المناطق
المصدرة له : ومن هناك يصدر إما بجرأ من ميناء سمهرام والذي يعرفه
الكتاب القدامى باسم موسيبا ، وما زالت أطلاله باقية بالقرب من صلالة ،
أو عن طريق الجمال عبر حضرموت وعبر الصحراء العربية .

وكانت ظفار تشكل جزءاً من الثقافة القديمة لجنوب الجزيرة العربية ،
وهي ثقافة سبأ وحمير ، ولا يعرف الكثير عن هذا الشعب ، حيث لم تُجر
حفريات أثرية كثيرة بهذه المنطقة . وتؤكد تقديرات اليونان والرومان
الأهمية التجارية لجنوب الجزيرة العربية والتي نشأت على أساس تجارة
ظفارة في البحور . ولقد ذهب الجغرافي « بلييني » إلى حد وصف سكان
جنوب الجزيرة العربية في ذلك الحين ، بأنهم أغنى شعب في العالم .

وإن ما نحن متأكدون منه الآن هو وصول العرب إلى عمان . ففي
القرن الثاني قبل الميلاد وصلت إليها موجات من القبائل المهاجرة من المنطقة
المحيطة بسد مأرب في اليمن .

وأكبر مجموعتين من القبائل العربية التي دخلت عمان في هذا الوقت ،
قد عرفت أولهما باليمنيين ، وقد جاءت من جنوب غرب الجزيرة العربية
مباشرة ، وعرفت الثانية باسم نزار ، وقد جاءت عن طريق نجد .

، تقول الروايات ، إن إحدى هذه الموجات كانت بقيادة نصر بن
الأزد ، والثانية يقودها أبناء مالك بن فهم ، وهو أيضا من نسل الأزد .

ونحن نعرف أن مالك بن فهم نفسه هو الذي قاد موجة الهجرة الأولى
من العرب إلى عمان . ويقال إن اسم عمان مشتق من عمان بن قحطان ،
شقيق يمن بن قحطان . ويقول آخرون أنه كانت توجد قرب مأرب
قرية تسمى عمان . وعندما وصل العرب إلى عمان اكتشفوا مكاناً مشابهاً
للمكان الذي يحمل اسم عمان والموجود في مأرب .

وعلى أية حال ، فقد لحقت بهؤلاء أعداد متزايدة عبر القرون ، منذ
بداية سد مأرب وحتى انهياره في العقود الأخيرة من القرن السادس بعد
الميلاد .

ولم تكن الهجرات وحيلاً مفاجئاً من وطن قديم يعقبه استيطان فوري

لوطن جديد . ولكنها كانت عملية الانتقال لجيل يعقبه جيل ، حيث تنتقل قبيلة ونمواً عنها من عالمها الذي أصابه الدمار ، فأصبحت فيه لا تجد به ما يغريها على البقاء، فتمضى موعداً أو إثنين حيث تجلب العواصف الممطرة الحياة إلى الأرض الجافة ، وحتى تصل في النهاية إلى أرض خصبة ، تجرى فيها مجارى الماء ، وتنمو فيها الأشجار ، وتنتشر فيها المزارع التي تمتلئ بأشجار الفاكهة من كل الأنواع .

ولم تصبح هذه القبائل العربية سكانا مقيمين إقامة دائمة في عمان إلا بعد دخولها الإسلام وطرد الفرس منها ،

فمن الطبيعي أن عمان كانت مأهولة بالسكان عندما وصل العرب إليها ، ولنا أن نتوقع أن العرب المهاجرين قد جاءوا إليها مثل أسراب الخراد القادم من الصحراء . فالجوع والإصرار دفعهم إلى أخذ ما يحتاجونه ، حتى لو قاتلوا من أجل ذلك إذا دعت الضرورة .

ولقد استوطن العرب أساساً قلب عمان ، في الجبل الأخضر ، والوادي المحيط به الذي تجرى فيه المياه ، وفي الشرقية . ولم يكن وجودهم على الساحل كبيراً . وكان سكان الساحل خاضعين لمالك من أصل فارسي هو ملك هرمز ، بينما كان سكان الجبال متمسكين باستقلالهم .

وكانت عمان من أولى الدول التي اعتنقت الإسلام في عهد النبي محمد عليه الصلاة والسلام . كما كان التجار العمانيون طليعة الذين قاموا بالتجارة بين عواصم الصين الإمبراطورية وبين عواصم الإسلام . وأول عربي يبحر مسافة ٧٠٠٠ كيلو متر من خليج كانتون ثم يعود ، هو أبو عبيدة ، وهو عماني ، وقد أبحر إليها في القرن الثامن بعد الميلاد، أي قبل حوالي ٨٠٠ عام من اكتشاف كولومبوس لأمرিকা . وكانت جرأة أبو عبيدة - مثله مثل كولومبوس - خطوة دفعت كثيرين من بني وطنه لتقليده ، وهم أولئك الذين سيطروا على طرق التجارة إلى شرق إفريقيا والهند ، وما جاورها .

وفي حوالي القرن العاشر كانت العاصمة العمانية - صحار - من أهم الجوانب البحرية المطلة على المحيط الهندي . ووصفها جغرافياً ، معاصر لتلك الفترة ، هو الاصطخري ، بأكثر مدن عمان ثروة وسكاناً . وأضاف قائلاً : إنه من غير الممكن أن نجد على شاطئ البحر الفارسي أوفى كل أرض الإسلام مدينة أكثر ثراء بالمياه الجارية أو البضائع الأجنبية من صحار . وقد تهدمت هذه المياه الكبيرة في صحار منذ وقت طويل ، لكن قلعات - وجوامع المياه العماني الذي حل محل صحار ، قد بقيت منه آثار تشهد على عظمته القديمة .

وقد اشتهر العمانيون في المصور الوسطى بأنهم بحارة وتجار .

وأنجبت الطائفة الإباضية - وهي العقيدة السائدة في عمان - عدداً من الزعماء الدينيين البارزين ، ولعب العمانيون ، الذين أقاموا في البصرة بالعراق لفترة أثناء القرون الأولى للإسلام ، دوراً أساسياً بين النخبة المتقدمة في العالم الإسلامي . ومن بينهم الشيخ الخليل بن أحمد ، الذي كتب أول قاموس عربي .

وفي السنوات الأولى للقرن السادس عشر عندما ظهرت سفن أوروبية - وهي السفن البرتغالية - في المياه العمانية ، فإن الفترة البحرية العمانية أصبحت بتدهور خطير . وسقطت المدن الساحلية أمام الأسطول البرتغالي ، رغم أنهم لم يتوخأوا إلى داخل عمان ، وظلت عدة مدن ساحلية ، منها مسقط ، في يد البرتغاليين طوال ١٥٠ عاماً .

وفي عام ١٦٢٢م عندما طرد البرتغاليون من هرمز - وهي قاعدتهم في مدخل الخليج - أصبحت مسقط معتقلهم الأساسي في الشرق الأدنى . وكانت دناعات مسقط مدعمة تدعياً قوياً وتتكون من قلعتين كبيرتين ، وسور به أبراج للمدافع ، وكثير من التحصينات الفرعية .

ثم واجهت قوة البرتغاليين الاختبار عندما اتحدت ضدهم قوات القبائل في داخل عمان على يد الأئمة من أسرة اليعاربة .

وفي عام ١٦٥٠ طرد البرتغاليون من مسقط . وكان طردهم ، على يد الحاكم اليعربي سلطان بن سيف ، إبداناً بفترة ليس لها مثيل من القوة والرخاء لعُمان . فلقد أغار الأسطول العماني خلال الخمسين عاماً التالية على الأراضي التي يسيطر عليها البرتغاليون على طول السواحل الهندية والأفريقية ، واستطاعوا قبل نهاية القرن أن يطردوا البرتغاليين من شرق إفريقيا ، وإن وضعوا الأساس للوجود العماني القوي هناك والذي استمر طوال ٢٠٠ عاماً . وواجه الأسطول البريطاني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر صعوبة في دخول مياه المحيط الهندي ، حيث كانت عمان القوة البحرية المسيطرة في غرب المحيط الهندي .

وبلغ الرخاء التجاري العماني ذروته في أول عهد أسرة البوسعيد ، الأسرة الحاكمة حالياً . وكان مؤسس الأسرة الإمام أحمد بن سعيد قد انتخب إماماً عام ١٧٤٩م ، بعد أن قاتل ضد الغزو الفارسي لعُمان . وقد عمل على رفع قدرة الأسطول ، واستغل السفن الحربية في نقل التجارة في الفترات التي تترقب فيها الحروب . وفي عهد أبناء الإمام أحمد ، نزل مقر الحكومة من مدينة الرساتاق في الدانقل إلى ميناء مسقط ، وهي خطوة ترمز إلى توسع النشاط التجاري لعُمان .

وبعد وفاة الإمام أحمد أعظم الحكام البوسعديين الأولين ، تولى السيد سعيد بن سلطان ، وقد حكم عُمان من عام ١٨٥٧ إلى عام ١٨٠٦ . وفي عهده تجاوزت الممتلكات العمانية حدود التورقعات ، فشملت زنجبار ، وأجزاء من شرق إفريقيا ، ومن جنوبي إيران ، وباوشستان . وازدهرت التجارة خاصة مع شرق إفريقيا ، وتمتعت مسقط بأبن أكثر مما توافر لغيرها ، وتطورت إلى سوق هام ليس بالنسبة لعُمان وحدها ، بل أيضاً بالنسبة لمنطقة الخليج ككل . واهتم السيد سعيد بتطوير التجارة في كل ممتلكاته .

وَأدخل صناعات القطن إلى زنجبار بنجاح وصل إلى أن مزارح القرنفل

كانت قبل نهاية عهده مصدراً لثلث الدخل الحكومي في زنجبار . واليوم تنتج زنجبار ٩٠% من إنتاج العالم من القرنفل . وكانت الآفاق التجارية للسيد سعيد تمتد إلى مستوى العالم ، وفي عام ١٨٤٠ أرسل مبعوثه أحمد ابن نعمان بسفينة محملة بالسلع التجارية إلى الجمهورية الناشئة للولايات المتحدة الأمريكية . وكانت عمان في عام ١٨٤٠ هي أول دولة عربية توفد ممثلاً دبلوماسياً إلى الولايات المتحدة .

وبعد وفاة السيد سعيد قسمت الإمبراطورية البحرية التي حكمها . فقد تولى ابنه السيد ماجد وخطفاؤه حكم الجزء الواقع في شرقي إفريقيا ، بينما خضعت عمان للحكم أكبر أبنائه السيد ثويني . وقد توافق مع تقسيم السلطنة هبوط حاد في الظروف التجارية ، فتميلص إلى حد كبير النفوذ البحري العماني الذي يعتمد على الملاحة ، وذلك نتيجة لظهور الملاحة المنتظمة بالسفن للتجارية في ثمانينات القرن التاسع عشر ، ونتيجة لفتح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وأدى اتساع الاستعمار الأوربي ومد الحماية البريطانية عبر المحيط الهندي ، إلى الحد بدرجة كبيرة من مصالح ومكاسب عمان في الميادين الدولية .

وأدى تآكل أسس الرخاء القديم لعمان ، إلى فترة من المتاعب السياسية للسلطنة . وتسبب التنافس بين الإمام في داخل عمان ، والسلطان في المنطقة الساحلية إلى الحد من دخل الحكومة ، وسببت النشاطات الشيوعية ضد الحكومة آلاماً ومتاعب للشعب العماني .

وبدأ التاريخ الحديث لعمان في عام ١٩٦٧ مع أول شحنة بترول تصدر للخارج ، وهو ما وفر للبلاد مصدراً كبيراً للدخل تحتاجه للتنمية . وبدأ سلطان عمان وقتئذ السيد سعيد بن تيمور ، في تنفيذ خطط لبعض مشروعات التنمية مستخدماً دخل البترول ، ولكنه لم يتحرك بالسرعة الكافية للاستجابة لمطالب الشعب بالنسبة للتعليم ، والعلاج الطبي ، وغيره

من الخدمات . وعقب انتقال السلطة إلى جلالة السلطان قابوس في يوليو ١٩٧٠ ، بدأ عهد جديد ومستمر من التنمية والرخاء السريعين .

و كما يشير عنوان الكتاب « عمان وشرق إفريقيا » فإن الموضوع الرئيسي هو ما حققه عمان لشرق إفريقيا في مجالات الثقافة ، والاقتصاد ، والدين ، والتقاليد ، وقد نوقشت هذه الموضوعات لارتباطها بما كان يجرى في عمان ذاتها .

وحتى نعرف عمان ، فإن القصة تبدأ بهجرة العرب من اليمن بعد الفيضانات التي أعقبت انهيار سد مأرب ، وتنتهي بالوضع الحالي لسلطنة عمان . وحيث أن الكتاب يناقش الأحداث التاريخية ، فلم يذكر إلا القليل عن الأمور الراهنة في السلطنة ، رغم الإشارة إلى بعض العناصر التي تعمل ضد الرخاء ، والتقاليد والثقافة المتميزة للبلاد .

ولقد استفدت منذ التحضير لهذا الكتاب من أعمال كثير من المؤلفين ، لكن مسئولية محتوياته تقع كاملة على عاتقي .

أحمد حمود المعمرى

مارس ١٩٧٩

(١)

لا يوجد تاريخ بدون اعتماد عليه في الاستدلال على وجود مستوطنين
عمانيين قبل وصول العرب إلى هذه الأرض ، ولكن من المعتقد ، طبقاً
للو رايات التي يتناقلها الناس واحداً عن آخر ، أن إحدى العشائر ، ويطلق
عليها « البياسرة » قد تكون أول من سكن عمان ، ونشأ فيها الشعب الذي
كان يستوطن أرض عمان قبل وصول العرب إليها .

ووفق الاعتقاد المعاصر فإن البياسرة إحدى الجماعات التي تعرضت
لهزيمة في الحرب ، بيد أن الرأي الأكثر تداولاً بين أفراد الشعب العماني
هو أن البياسرة عشيرة رفضت الدخول في الإسلام ، فكانت من نتيجة ذلك
أن وقعوا أسرى حرب ، غير أن هذا الرأي لا يمكن قبوله نظراً لعدة أسباب ، لأن
الإسلام دخل عمان بعد سنوات من توطن العرب فيها ، ولأن العمانيين
قد اعتنقوا دين الإسلام سلماً بمحض إرادتهم ، فليس هناك أي دليل على
أن البياسرة كانوا من أسرى الحرب عند دخول الإسلام إلى عمان ، والبياسرة
منتشرون الآن في أجزاء مختلفة من البلاد خاصة في الشمال ، وعلى طول
الساحل ، ويعيشون في ظل قبائل مختلفة .

وهناك عشيرة أخرى أصغر من البياسرة ، هي عشيرة شهوم Shihum
وتعيش في الإقليم الشمالي من عمان ، ومعظم أفرادها من الصيادين والرعاة ،
وهم يتحدثون إلى جانب اللغة العربية اللغة الفارسية ، وتبدو بشرتهم أكثر
صفرة من معظم العرب ، ومن المحتمل أن يكونوا هم أصل سكان عمان
الشمالية ، وقد دفعهم إلى جبال الشمال الهجمات المتتامة للغزاة :

وثمة عشيرة ثالثة أصغر ، وهي الزاتوت ، وأفرادها أشبه بالبحر ،
ولهم لغتهم الخاصة ، ومن عاداتهم ، أنهم لا يتزوجون من غير نساء
عشيرتهم إلا نادراً .

وفي الإقليم الجنوبي من سلطنة عمان ، ظفار ، يختلف الرعيون ، سكان جبال القرا ، فهم قليلون ، ولهم مظهر وزى مختلف عن باقي العمانيين ، ويتكلمون لغة ، تسمى الجبالية ، إلى جانب اللغة العربية ، ويشار إليهم عادة ببيت كثير ، والمهرة .

وفي منطقة العاصمة والمدن الساحلية الأخرى يوجد كثيرون من أصل إفريقي ، جاء أسلافهم وعاشوا في عمان عندما كانت علاقة عمان قوية بساحل شرقي إفريقية ، وبخاصة زنجبار ، وأما الذين هم من أصل هندي ، ويعرفون باسم اللواتيين ، فقد سكنوا مدينة مطرح التجارية ، وعاشوا في حي مغلق عليهم ، وما زالوا يحتفظون بلغتهم .

وأكبر الطوائف العمانية غير العربية طائفة البلوش ، وقد عاشوا في مدينتي مسقط ومطرح ، وعلى طول ساحل الباطنة ، وجاءوا من ساحل مكران في بلوشستان وجواهر ، الذي ظل جزءاً من عمان حتى عام ١٩٥٨م وهناك قبيلة أخرى ، تسمى بني بلوش ، وأفرادها من نسل قوة من الجنود ، جندت في مكران عام ١٧٣٦ ، وقد اندمجوا الآن في المجتمع العماني ويعيشون كقبيلة عربية في الظاهرة .

وتوجد بين طائفة العرب مائتا قبيلة ، ولا يدخل في مجال هذا الكتاب تفصيل القبائل العربية التي تعيش في عمان ، ويكفي أن تذكر ، أن عمان مجتمع قبلي ، غير أن القوة القبلية الآن أقل مما كانت عليه في الماضي ،

وهناك حقيقة هامة تستحق الذكر ، وهي ، أن العمانيين ، أياً كانوا ، بدون استثناء ، يتميزون بكرم الضيافة البالغ ، وتقضى تقاليدهم في الضيافة ألا يأكل المضيف حتى يأكل المضيف ويشبع .

(٢)

عصر ما قبل العرب

استوطن عمان كثير من الأجانب في الماضي ، لكن الفرس من بينهم - بصفة خاصة . قد لعبوا دوراً ملموساً في تاريخ واقتصاد البلاد . فقد أقاموا على طول الساحل ، ومارسوا سلطتهم من مدينة صحار . العاصمة الساحلية حينئذ . وتعتبر الإفلاج أهم ما خلفوه وراهم من تراث في عمان . وهي نوع من أنظمة الري يرجع إلى ألفى عام . ووسيلة للحصول على الماء للري بإنشاء قنوات جوفية تحت الأرض وشق طريق من هذه القنوات إلى المنطقة التي يراد ريهما بأن يخترق القناة على امتدادها ممرات رأسية عند الحدود الفاصلة ، بطول يتراوح بين ٢٠ و ٥٠ متراً . ثم تتصل قيعان هذه الممرات بقناة طولية تتدفق منها المياه منحدره برفق لتصل إلى سطح أقرب مكان يتم ريه .

وأهم مظهر لهذا النظام في عمان هو إمكانية الاعتماد الكامل عليه ، حتى في فترات الجفاف الطويلة فلا يتوقف تدفق المياه في الإفلاج ، وإن كان يتضاءل خلال تلك الفترات ويعتقد أن هذا النظام قد ظهر في فارس أثناء حكم أسرة أرخميدس Achaemenion (منذ القرن الرابع أو السادس قبل الميلاد) ، ثم عمل الساسانيون على تحسينه في الفترة الواقعة بين القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي ، . ونقله الفرس إلى عمان منذ ألفى عام على الأقل . وكان نظام الرأى بالإفلاج مصدر ازدهار للزراعة في عمان .

وكشفت عمليات التنقيب عن الآثار ، عن أن عمان كانت جزءاً من حضارة تمتد عبر فارس إلى البلاد التي تعرف الآن بأفغانستان ، وبلوخيستان ، وغرب باكستان في الألف عام الثالث قبل الميلاد . وتدل مجموعة المقابر الحجرية ، وقطع شظايا الأواني والأوعية الفخارية ، على طول الساحل ، (م ٢ - عمان وشرق أفريقيا)

وكذلك الأدوات المصنوعة من الحجارة ، وقطع الأواني الخزفية وغيرها . ،
على أن الحلقات الأولى من تاريخ عمان كانت عامرة بالحياة .

ويبدل أحد الخناجر المصنوع من البرونز والذي عشر عليه عام ١٩٧١
في بلدة عبرى في داخل عمان ، أنه فارسي الأصل ومصنوع في القرن
الثاني عشر قبل الميلاد . وتقول الراويات التي تحدثت عن اسم «مزون» أن
هذا الاسم يشير إلى جزء من عمان كان ضمن حضارة تنتمي إلى أصول
فارسية .

وقد كان بين عمان وفارس جوار وثيق ، وأنه لمن المنطقي وجود روابط
تاريخية قديمة بين البلدين .

(٣)

مجيء العرب إلى عمان

تقول إحدى الروايات القديمة ، إن أول عربي جاء إلى عمان قادماً من اليمن هو عمان بن قحطان أخو يمن بن قحطان ، ومن ذلك الشخص استمدت عمان اسمها ، وهناك قصة أخرى تقول ، إنه كانت توجد في مأرب باليمن قرية تسمى عمان ، وعندما وصل العرب إلى عمان وجدوا قرية مشابهة لها ، فأسموها عمان .

والحقيقة المؤكدة هي أن موجات مختلفة من الهجرات من رجال القبائل التي كانت تقيم في المنطقة المحيطة بسد مأرب في اليمن ، قد نزحت إلى عمان واستقرت بها في القرن الثاني قبل الميلاد .

والرواية الأكثر قبولا تقول ، إن إحدى هذه الموجات كان يقودها نصر بن الأزدي ، والأخرى يقودها مالك بن فهم الأزدي .

ويقال بالنسبة لهجرة مالك بن فهم الأزدي وجماعته أنه كان ضحية اتهام وهو في وطنه الأم ، وجهه إليه أحد رجال قبيلته ، بأن ابن أخيه قد قتل كلبه وقد اعتبر مالك هذا الاتهام إهانة لا تحتمل ، فقرر مغادرة البلاد .

والسبب الأكثر اتفاقاً مع المنطق هو أن تشقق سد مأرب قد أرغم أناساً كثيرين على مغادرة وطنهم والتجوال بحثاً عن مستقر جديد . وقد لحق بهؤلاء المهاجرين الأوائل أعداد متزايدة من المهاجرين عبر القرون . عندما زادت التشققات في سد مأرب حتى أنها تماماً في العقود الأخيرة من القرن السادس بعد الميلاد :

ولا يوجد ما يدعو للشك في أن الهجرات لم تكن وحيلاً مفاجئاً من وطن قديم يعقبه استيطان فوري في وطن جديد . ولكنه كان عملية

مستمرة خلال جيل بعد آخر ، وينتقل المهاجرون رغماً عنهم من وطن أصابه الدمار ، ويمرون بقفار جرداء بها قليل من أشجار الشوك ، وقليل من الطعام لا يقيم أودهم ، ويقاثلون أناساً يستوطنون هذه المناطق التي تقع في طريقهم إلى موقع هجرتهم النهائية ، حتى وصلوا أخيراً إلى أرض خصبة ، كثيرة الأشجار ، والمزارع ، وحدائق النخيل ، وأشجار الفاكهة من مختلف الأنواع : هي عمان .

ولم يكن وصول العرب إلى عمان يعني السلام أو الاستقرار لهم ، لأنه كان في عمان بالفعل شعب يقطنها . وكان المجتمع الذي وجدته العرب في عمان هو على الأرجح مجموعات من المجتمعات الريفية المتمتعة بالرخاء ، يضمها نظام إقطاعي أرسقراطي ، وتعيش على اقتصاد زراعي منظم يعتمد على نظام الري الذي أدخله الفرس .

وجاءت الهجرات العربية إلى هذه المجتمعات ، مثل أسراب الجراد القادم من الصحراء . وبدافع من الجوع والإصرار ، فمدوا أيديهم إلى كل ما صادفوه . بل ولجأوا إلى العنف عند الضرورة .

واستمر هذا الحال ، حتى أصبح العرب القوة المسيطرة في ذلك المجتمع ، تعززهم موجات الهجرات الجديدة التي لحقت بهم .

ويعتقد المؤرخون العمانيون أن مالك بن فهم الأزدي هو مؤسس عمان ، وأنه أقام خيامه قرب نزوى عند وصوله ، وفي ذلك الوقت كانت البلاد تحت السيطرة الأسمية لحاكم فارسي كان يحكم من عاصمته في صحار . وعندما استقر مالك بن فهم واستوطن هو وقومه ، بعث برسالة إلى الحاكم الفارسي يقول له فيها : لقد استقر الرأي على الإقامة في إقليم من عمان . وأنه لا ينوي إخراج الفرس منها . أما إذاهاجموه ، فإنه لا بد وأن يهزمهم ويطردهم من البلاد :

ورفض الفرس — وهو ما كان متوقعاً — ذلك التهديد من خليط همجي

من العرب القادمين من الصحراء . واستعدوا للحرب ، وانطلقوا من صحار عبر وادي الحزى بقوة كبيرة تضم بعض القبيلة ، واستعد مالك لمواجهة التحدى .

وتقدم الفرس الذين قدر عددهم بثلاثة أو أربعة آلاف نحو سلوت قرب نزوى ، حيث واجههم مالك بن فهم بستة آلاف رجل ، منهم ألفان من الفرسان يقودهم ابنه هناة ، وتولى مالك قيادة جيشه فوق حصان أرقط ، مرتديا رداء أحمر اللون ، وشالاً أصفر ملفوفاً حول خوزته وصاح بجنوده « تقدموا معى نحو كل هذه القبيلة لتهاجمها » . وهاجموها برماحهم وسيوفهم . فطلب الفرس هدنة . وعادوا إلى صحار : وعاد مالك إلى قباها .

وعندما بلغ نبأ الهزيمة ملك فارس ، استاء وبعثت بتعزيزات . وعلم مالك بذلك ، فأرسل رسالة أخرى إلى الفرس يبلغهم أنه سيطر دهم من البلاد إذا لم يرحلوا عنها . وعندما رفضوا ذلك زحف عاجهم وهزمهم . وكانت هذه هى نهاية الفرس فى عمان ، وبعدها بدأ العمانيون فترة من الازدهار وتطوير بلادهم الجديدة ، ودام حكم مالك سبعين عاماً ومات وعمره ١٢٠ عاماً .

ويعتبره العمانيون واليمنيون الذين من أصل أزدى جددهم الأكبر . ولا يزال يوجد فى عمان قرية تسمى منح ، وقلج مهجور ، يعتقد أن مالك هو الذى بناه .

والمعتقد أن عرب عمان ينتمون إلى عائلتين رئيسيتين هما : القحطانيون والعدنانيون . وينتمى الأزد المعروفون باليمنيين إلى عائلة قحطان ، بينما ينتمى النزاريون إلى عائلة عدنان .

وقد استقرت العائلتان فى عمان : ثم اكتسب كل منها لقباً أخرى ، وأصبح القحطانيون يعرفون باسم بنى رواحة ، والعدنانيون باسم بنى ريام .

ومن المثير للاهتمام أنه توجد في إحدى المدن العمانية القديمة ، وهي
أزكى ، منطقتان تسمى إحداهما اليمن ، والأخرى نزار .

وقد دخل العدنانيون عمان في تاريخ متأخر أقدمين من الجزيرة العربية ،
واستوطنوا الجزء الشمالي من البلاد .

وعمان من أول البلاد التي اعتنقت الإسلام في حياة النبي محمد
(صلى الله عليه وسلم) ، وكان ذلك في عام ٦٣٠ ميلادية عندما وصل
عمرو بن العاص إلى عمان كبعوث عن النبي محمد يطلب دخول العمانيين
في الإسلام . وكان الفرس في ذلك الوقت قد استعادوا السيطرة على المناطق
الساحلية من عمان وحتى البحرين والمنطقة الساحلية الممتدة إلى اليمن .
وأصبحت صحار العاصمة لهم مرة أخرى . وظلت السيطرة للأزد في
داخل عمان .

وحوالى عام ٦٨٠ هـ تعرضت عمان لغزوات جديدة من العراق وفارس
تحت قيادة الحجاج ، الحاكم المسلم للعراق ، وظلت عمان سبعين عاماً
أونحو ذلك تحكم من الناحية النظرية على الأقل بحاكم يعينه حاكم العراق .
ومع نهاية تلك الفترة تحالف أحد العمانيين - وكان قد عين حاكماً ثم عزل -
مع الطائفة الأباضية واستطاع أن يفرض سيطرته تدريجياً على البلاد . وفي
حوالى عام ٧٥٠ ميلادية انتخب الجندى بن مسعود أول إمام في عمان .

والأباضية ، هي طائفة مسلمة تؤمن بالديموقراطية الكاملة في اختيار
الخليفة - على أساس أهليته ونزاهته - والعمانيون - كإباضيين - لا يعتبرون
أنفسهم خوارج بإيمانهم بالديموقراطية في اختيار قائدهم . وهم يعتبرون
أنفسهم مسلمين حقيقيين ، وقائدهم يعرف بالإمام « وهو ما يعنى ببساطة
الشخص القدوة . ويمنحه شعبه ولاءه وطاعته بحيث يقودهم ويرشدهم
ويدافع عنهم ويحميهم . من أعدائهم ، والمنزوم بالقرآن وتعاليم الرسول عليه
الصلوة والسلام .»

وكل هذه القوانين تعتبر مقدسة ، ولا يمكن بالتالى تغييرها
أو معارضتها .

ويتم اختيار الإمام - مبدئياً - بواسطة مجموعة صغيرة من العلماء كبار السن ، ولا بد ، بعد ذلك ، من موافقة الشعب ، على انتخاب الإمام من خلال التصويت . ولا يمكن انتخاب الإمام المرشح ، بدون الموافقة العامة عليه .

وقد أصبحت الإباضية عقيدة تجمع حولها العمانيون في كفاحهم من أجل الاستقلال .

ومنذ انتخاب أول إمام ، تعرضت عمان لأكثر من عشر غزوات متتالية على مدى مائتي عام . وكان هدف كل هجوم هو تدمير المجتمع العماني ، ومن المرجح على ما يبدو أن دافع الغزاة كان بسبب تجاهل العمانيين للالتزام بدفع الزكاة للخليفة . ولقد فشل كل غزو أمام المقاومة العنيفة من العمانيين دفاعاً عن عقيدتهم وأسلوب حياتهم ، بالإضافة إلى وعورة البلاد ومساحتها الشاسعة ، وصعوبة المواصلات بها .

ومنذ انتخاب أول إمام في عام ٥٧٥٠ هـ ، جرى العرف على انتخاب الأئمة . وكان آخر إمام تم انتخابه عام ١٩٥٤ ، وهو الإمام غالب بن علي الهنائي ، الذي ظل في السلطة حتى عام ١٩٥٦ ، عندما فر إلى السعودية وعاش في المنفى بعد هزيمته

وكان الأئمة - الذين أعقبوا الجليلي بن مسعود - من قبيلته النبهاني . وفي عام ١٦٢٤ انتخب ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربي اماماً ، وكان ينتمي إلى قبيلة أخرى . وتعتبر قبيلة اليعاربة أقدم القبائل اليمانية جميعاً في عمان ، وهي كما يلي في تسلسلها : اليعربي ، العربي ، الحميري ، الأزدي ، اليماني . وكان الإمام ناصر شخصاً غير عادي . وقد تم انتخابه في الرستاق ، وقاد عملية انتخابه شيخ عالم ورع هو اخميس بن سعيد الشقصي ، الذي

أدار مداولات الشعب عندما دب بينهم انقسام شديد حول أمور كثيرة .

وعندما توفي الإمام ناصر عام ١٦٤٩م خلفه ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي الذي طرد البرتغاليين من مسقط في يناير ١٦٥٠ ، وطاردهم حتى الهند والساحل الشرقي لإفريقية وقد بنى أسطولاً بحرياً قوياً من السفن التي استولى عليها من البرتغاليين ، وبذلك نجح في أن يجعل من عمان بسرعة أقوى دولة بحرية في شمال المحيط الهندي ، وازدهرت تجارة العمانيين بصورة لم يسبق لها مثيل .

وبوفاة سلطان بن سيف عام ١٦٧٩ ، أصبح ابنه بلعرب إماماً ، وبذلك وجد مبدأ الحكم الوراثي للإمامة . ولم يكن حكم بلعرب موفقاً ، ومتألقاً مثل حكم أبيه . فلقد كان على نزاع مستمر مع أخيه سيف بن سلطان ، وتوفي في النهاية في قلعته الجميلة في جبرين عام ١٦٦٢م .

وسمى سيف بن سلطان اليعربي الذي خلف أخاه ، نحو تطوير التجارة وقد شجع شعبه على ذلك وكانت عمان قوية في عهده ، وازدهرت فيها التجارة والزراعة ، وتوفي في الرستاق في أكتوبر ١٧١١ .

وفي إطار مبدأ وراثة الإمامة ، فإن الذي خلف سيفاً هو ابنه سلطان بن سيف . وكان الإمام سلطان متواضعاً ، وأنفق كثيراً من المال الذي ورثه عن والده ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه اقترض كثيراً من المال . وبني قلعة جميلة في الحزم قرب الرستاق . ودرب بحريته على أن تكون هجومية بحيث أصبحت هامة في أنحاء الخليج والمحيط الهندي . وقد أدى ذلك إلى أن تكون لعمان اتصالات بسفن شركة الهند الشرقية ، وقوة بريطانيا فيما وراءها ، وهو ما كان له تأثيرات بعيدة المدى على تاريخ عمان .

وتوفي الإمام سلطان عام ١٧١٨ ، وكان عمر ابنه سيف بن سلطان الثاني إثني عشر عاماً . ورغم اتباع نظام مبدأ الوراثة ، فإنه كان أنسب

رجل للإمامة ، إلا أنه لم يكن مقبولاً لحدائثة سنه ، وللحرب الأهلية التي وقعت بعد ذلك . وقد انقسم الخانبان المتنافسان في الحرب الأهلية إلى فريقين ، يمانى ونزارى . وتولى قيادة القبائل اليمانية خلف بن مبروك ، وهو من قبيلة بنى هناة ، ولملك عرفوا بالهناثيين ، وكان على رأس النزاريين محمد بن ناصر وهو من بنى خافر ولملك عرفوا بالغاغرية . وقد قتل القائدان في معركة صحار عام ١٧٢٤ .

وفي عام ١٧٣٧ تعرضت البلاد لغزو فارسي وقد زاد من تعقيد موقف الحرب الأهلية المضطرب ، ولكن نهاية هذا الصراع المدمر بدأت تلوح في الأفق . فقد هزم الفرس في صحار على يد أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد الذي انتخب بعد ذلك بوقت قصير إماماً ، وذلك في عام ١٧٤٤ . وأصبحت أسرة البوسعيد - التي تعرف الآن بآل سعيد . تملك توجيه دفة الأمور في عمان طوال الـ ٢٣٢ عاماً الماضية ، وينتمى إليها جلالة السلطان قابوس بن سعيد آل سعيد .

ورغم أن كثيراً من إنجازات أسرة اليعاربة قد دمرت أثناء الحرب الأهلية ، إلا أن الإمام أحمد استمر على سياسة تلك الأسرة التي دامت ١٢٠ عاماً . فقد شجع التجارة وازدهرت البلاد من جديد ، واستمر حكمه ٣٩ عاماً ومات عام ١٧٨٣ .

وخلقه إبنه الثاني سعيد الذي وصل إلى الحكم بالانتخاب . ولم يكن إبنه الأكبر هلال أهلاً للحكم لأنه كان ضريباً ، أما إبنه الصغيران سيف وسلطان فقد قضيا على أى مطلب لهما بنمردهما ضد أبيهما . ولم يبق سعيد تحدياً كامام ، ولكن بالنسبة لوضعه كحاكم دنيوى ، فإن ابنه أحمد قد انتزع منه السيطرة السياسية ، ونقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط ، حيث تولى الحكم ، وهو لا يحمل لقب « السيد » . وظل والده إماماً في الرستاق ، لا يتمتع بأية سلطة حتى وفاته في وقت فيما بين ١٨١١ و ١٨٢١ .

وكان نقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط وتولى أحمد السلطنة بلقب السيد بداية لاستخدام تعبير « مسقط وعمان ، بدلا من عمان » كدولة واحدة ، واستمر هذا الوضع حتى يوايو ١٩٧٠ عندما تولى جلالة السلطان قابوس بن سعيد السلطنة ، فأصدر مرسوماً بتغيير اسم البلاد من « سلطنة مسقط وعمان » ، إلى « سلطنة عمان » ٥

وحكم السيد أحمد بن سعيد في مسقط ، من ١٧٨٤ إلى ١٧٩٢ وتوفي مصاباً بالجدري في مسقط . وقد حل محله عمه السيد سلطان بن أحمد . خامس أبناء الإمام أحمد — وأحد الأبناء الذين تمردوا على أبيهم عام ١٧٨١ .

وأبرم السيد سلطان بن أحمد اتفاقاً عائلياً مع إخوته في بركا عام ١٧٩٣ . وأدى هذا الاتفاق إلى مزيد من انقسام عمان ، حيث استمر سعيد في الرستاق كإمام ، وحكم قيس (الإبن الثالث للإمام أحمد) في صحار ، وبقى سلطان في مسقط . وبهذا الاتفاق قسمت سلطة الحكم ، وتعطلت الإمامة عن مزاوله السلطة . وقد شغل سلطان — أنشط أعضاء العائلة المالكة — بتطوير القوقا البحرية والسفن التجارية . وتسبب هذا في استياء شعب الداخل . وضم السيد سلطان إليه إقليم جوادر على ساحل مكران في بلوخيستان ، وظل هذا الأقليم جزءاً من عمان حتى عام ١٩٥٨ حين تنازل عنه السلطان سعيد بن تيمور

وخلال الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٠٣ تعرضت البلاد لغزو الوهابيين القادمين مما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية .

وقد نزلوا على ساحل الباطنة وحاصروا السيد قيس بن أحمد في صحار . وتعاقبت النكسات على العمانيين ، وبدأ الموقف شديد الخطورة حتى تم بالمصادفة اغتيال القائد الوهابي مما دفع أتباعه إلى الانسحاب .

وفي عام ١٧٩٨ ، أبرمت معاهدة مع شركة الهند الشرقية ، وهي

الشركة الإنجليزية التي استهدفت إبعاد الفرنسيين عن الهند . وأدرك السيد سلطان - بحكم كونه تاجراً ، له خبرته ومكانته - قوة الإنجليز وزياد سيطرتهم على تجارة الهند ، وأنه لا يملك القوة الكافية لمواجهتهم ، فوقع معاهدة معهم . وتوفي عام ١٨٠٤ .

وفور وفاته بدأت المكائد . وقد ظل عم سلطان . بدر بن سيف . حاكماً أسماً حتى وفاته عام ١٨٠٦ . ومع ذلك استمر القتال والانقسامات الداخلية حتى اغتيل بدر بيد سعيد بن سلطان عام ١٨٠٦ . وفي تلك الفترة أغرى الصعف الداخلي الوهابيين على القيام بغزو ثان ، انتهى بالنجاح ، وأسفر عن سيطرتهم على مساحة كبيرة من داخل عمان .

وكان عمر السيد سعيد بن سلطان ، الذي عرف باسم سعيد الكبير ، سبعة عشر عاماً ، وعندما تولى الحكم ، كان شاباً مرموقاً ، وقد خاض حروباً ، لإثبات كفايته وأهليته للحكم بإقصاء الوهابيين ، ولكن لم يتحقق له النجاح عليهم نهائياً إلا عام ١٨٢٠ ، بمساعدة البريطانيين والفرس .

وخلال تلك الفترة توفي الإمام سعيد بن أحمد ، وبعد وفاته لم تبذل أية محاولة لانتخاب إمام آخر ،

وبذلك احتفظ السيد سعيد ، كما كان ، بالتقاليد التجارية لعائلته ، وعمل بنشاط لتوسيع تجارة عمان ونفوذها .

وفي عام ١٨٢٩ احتل ظفار - المنطقة الجنوبية من عمان - .

وفي عام ١٨٣٢ وجه نشاطه الممتلكاته في شرق إفريقيا ، وأمضى معظم الفترة التالية من حياته في زنجبار والساحل الشرقي لإفريقية .

وكان من نتيجة ذلك حدوث إزدهار في عمان ، بيد أن اهتمامه بممتلكاته الإفريقية ، وغيابه الطويل الدائم عن عمان بعد عام ١٨٣٢ قد أغرى آخرين على السعي من أجل السلطة في عمان .

وبما ساعد على ذلك علاقات السيد سعيد بالبريطانيين ، فقد كان مقتنعا بأنه لن يستطيع مواجهتهم ، وأنه إذا تعامل معهم كأصدقاء فإنه سوف يكون في وضع أكثر أمنا ، وقد طابه منه البريطانيون منح تجارة الرقيق التي يقوم بها رعاياه في ممتلكاته الإفريقية . وفي الأجزاء العربية من ممتلكاته .

ولقد بداله ذلك الطلب من البريطانيين طلبا غريبا ، خاصة وأنه يتعارض مع نظام المجتمع العماني والأسس الاقتصادية التي يقوم عليها .

فلم تكن للرق في الإسلام تلك السمات اللاإنسانية التي اقترنت بها في المجتمعات الأوروبية . فالرقيق في عمان يعدون من أفراد الأسرة وخدمها ، ويؤدون الأعمال المنزلية ، كما أن المجتمع يعتمد عليهم .

وحيث أن السيد سعيد لم يكن في وضع يسمح له بمناقشة البريطانيين في هذه الأمور فقد وافق على طلبهم ، وتم في عام ١٨٢٢ توقيع أول معاهدة مع البريطانيين لتحريم الرق في عمان . وكانت تلك المعاهدة مقدمة لمعاهدات أخرى وقعت عام ١٨٣٩ و عام ١٨٤٥ غير أن هذه المعاهدات تركت آثارا سلبية على الأزدهار التجاري في عمان ، وسببت شعورا بالمرارة ، ومن ناحية أخرى أصيبت الحركة التجارية في عمان بضربات شديدة ، لأن السفن الأوروبية الضخمة والسريعة وضعت السفن الشراعية العربية في وضع غير قادر على المنافسة ، تم زاد الطين بلة افتتاح قناة السويس الذي قضى على التجارة العمانية وأدى ذلك كله إلى تقليص إيرادات عمان بشكل حاد. أمضى السيد سعيد السنوات الأخيرة من حياته في زنجبار . وإن كان قد قام بزيارات عديدة لعمان كانت أكثرها اتسوية لخلافات نشبت في

غيابه . وصعف نفوذه على شعبه في عمان بسبب تلك الخلافات والمشاكل التي ، تفاقمت في السنوات الأخيرة بسبب التهديد الوهابي لعمان .

وكانت آخر زيارة للسيد سعيد لعمان عام ١٨٥٤ ، حيث تلقى رسالة بأن الفرس قد قاموا بهجمات متكررة على بندر عباس ، التي كانت إقليما فارسيا صغيراً ، وضمه السيد سعيد لعمان ، وتحتل بندر عباس موقعا استراتيجيا عند مدخل الخليج ، وكان السيد سعيد يرفض إعادة الإقليم إلى الفرس رغم أنه كان ينفق عليه أكثر مما كان يدره . ولذلك فإنه بعد أن أتم كافة استعداداته وعين ابنه خالدا ممثلا عنه في زنجبار ، غادر زنجبار ، يصحبه نجله برغش في ١٨ أبريل ١٨٥٤ في السفينة « فيكتوريا » وفي عمان كان يمثله في غيابه ابنه ثويني .

ولم يعيش خالد طويلا . وتوفي بعد إصابته بمرض استعصى على الشفاء في نوفمبر ١٨٥٤ وعمره ٣٥ عاما ، بعد ثمانية شهور من رحيل أبيه إلى عمان . وأصبح ابنه ماجد ممثلا له والده .

ومكث السيد سعيد في عمان حتى عام ١٨٥٦ . وغادر مسقط في ١٥ سبتمبر ١٨٥٦ ، وبعد يومين من الابحار من مسقط في ١٨ سبتمبر أصيب بألم شديد في ساقه نتيجة جرح قديم ، كما أصيب بدونسنطارياحادا وتوفي هد ذلك بستة أيام على ظهر سفينته .

ومع ذلك لم يصل نبأ وفاته إلى عمان أو زنجبار . وكان أهل زنجبار ينتظرون عودته بشوق ، بينما في عمان كانوا ينتظرون معرفة وصوله إلى زنجبار ، وعند وفاته في ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ ، تولى ابنه برغش أمر السفينة التي كانت تقل جثمانه ، ولما اقتربت من زنجبار أمر السيد برغش بأن ترسو السفينة في غير المكان المعتاد ، وأخذ جثمان أبيه إلى الشاطئ ودفنه سرا .

في نفس الوقت كان السيد ماجد يراقب البحر في انتظار وصول سفينة أبيه بعد أن علم باقترابها . ولكن سوء الأحوال الجوية وهياج البحر جعلت قاربه الصغير لا يستطيع تحمل الأمواج ، ففقد السيطرة على دفة قاربه ولم يستطع الوصول إلى السفينة .

ووضع السيد برغش خطة للاستيلاء على الحكيم . فما أن انتهى من مراسم دفن والده حتى قام بمحاصرة القصر الذي كان يقيم فيه أخوه السيد ماجد ، غير أن الخطة فشلت لغياب ماجد في ذلك الوقت ، فقد كان يستقل السفينة في البحر ، وبالتالي ثم تنصيب السيد ماجد حاكماً على زنجبار في نفس اليوم ، وكان يبلغ من العمر إذ ذاك ٢٢ عاماً .

أما السيد ثويني فقد تولى حكم عمان بعد وفاة والده باعتباره أكبر أنجال السيد سعيد . ولكن سرعان ما نشب نزاع بين السيد ثويني والسيد ماجد عندما طالب السيد ثويني بفرض سلطته على زنجبار أيضاً :

وكنتيجة للمحاولات التي قام بها السيد ثويني لفرض سلطته على زنجبار بالقوة ، تأزم الموقف ، فأحيل النزاع إلى اللورد البريطاني كاتنج الذي كان يشغل منصب الحاكم العام في الهند . فأصدر كاتنج حكماً بوجود تقسيم المملكة بين الأخوين . غير أن هذا القرار تمخض عند خسائر اقتصادية بالغة لعمان ، ونظراً لأن اللورد كاتنج قد أدرك الغبن الذي تعرضت له عمان فقد أصدر في سنة ١٨٦٠ قراراً بأن يلتزم السيد ماجد بدفع تعويضات سنوية للحكومة السيد ثويني في حدود ٤٠ ألف ريال نمساوي . غير أن حكومة زنجبار لم تلتزم بهذا القرار ، مما اضطر حكومة الهند إلى أن تتكفل بدفع المبلغ سنوياً ابتداء من عام ١٨٧١ حتى عام ١٩٤٧ عندما أصبحت هذه الأمور من اختصاص وزارة الخارجية في لندن ، والتي استمرت في دفعه حتى عام ١٩٦٧ عندما بدأت عمان تصدر البرول . وكانت قيمة هذا الدعم تندر بمعدلات مختلفة من وقت لآخر .

ففي عام ١٨٧٢ قدرت بمبلغ ٤٠٠ و ٨٦٠ روبية . وفي عام ١٩٦٧ وصل المبلغ إلى ٦٥٠٠ استرليني .

وقد أدت وفاة السيد سعيد ثم تقسيم مملكته بين ابنيه ، إلى تدهور سريع في أوضاع البلاد . ووجد خلفاء ماجد أنفسهم مقيدى الحركة أمام

زيادة الاهتمام الأوربي بشرقي إفريقيا والاعتداء على أراضيها ، خاصة من ألمانيا إلى أن تم في عام ١٨٩٠ وضع زنجبار مع أراض أخرى في إفريقيا تحت سيطرة بريطانيا باسم الحماية .

وفي عمان سرعان ما تمت السلطة القوية للسيد سعيد تحت حكم السيد ثويني وخلفائه المباشرين . وكان الاستثناء هو فترة الحكم القصيرة للإمام عزان بن قيس من ١٨٦٨ إلى يناير ١٨٧١ . وأدرك الإمام عزان ، أن عمان لا يمكن أن تكون دولة قوية مستقلة ما لم يتم استعادة سلطة الحكومة المركزية على قبائل الداخل ، وأن يعاد دفع أموال الزكاة كمصدر تقليدي للدخلى الحكومى ، فتحتل محل العوائد الجمركية الضئيلة .

غير أن السيد عزان لم يحقق نجاحاً في توحيد البلاد ، لأن الحكومة البريطانية لم تدرس هذا الموضوع ولم تدرس دوافعه ، ولم تعترف به أيضاً حكومة الهند ، وقد أوقف الدعم المالى الذى كان قد تقرر بموجب قرار كاتنج .

وإبتداء من عام ١٨٧١ فإن عمان غرقت أكثر وأكثر في بحر من الكساد الاقتصادى بسبب اضطرابات كثيرة نشبت في الداخل ، واستمر السلاطين في مسقط يواجهون تمرد القبائل وتهديدهم ، وظلت هذه الاضطرابات والخلافات بين الطرفين حتى عام ١٩٢٠ عندما وقع اتفاق في السيب بين عيسى بن صالح ممثلاً للقبائل وبين حكومة مسقط ، وعاد السلام والاستقرار إلى البلاد . وكان السلطان وقتئذ هو السيد تيمور بن فيصل ، جد السلطان قابوس .

ومن بين مواد هذا الاتفاق المشار إليه ، أن يتمتع رجال القبائل المتمردة عن مهاجمة المدن الساحلية التى يتمتعون فيها بحرية التنقل والأمن ، وأن يسمح لسكان المسدن الساحلية بالذهاب إلى المناطق الداخلية في عمان

لممارسة أعمالهم التجارية ، وقد تعهدت حكومة السلطان بعدم التدخل في شؤون القبائل .

ويقتضى الاتفاق أيضاً بأن تحمل جميع الخلافات والدعاوى ضد الشعب العماني من جانب التجار وغيرهم طبقاً للشريعة الإسلامية .

وفي عام ١٩٣٢ تنحى السيد تيمور ، وخلفه ابنه السيد سعيد بن تيمور ، وقد كان من الإنجازات الهامة التي قام بها السيد سعيد نصفيته الديون التي ورثها عن أبيه ، ورفضه أن يجلب على البلاد قروضاً أخرى ، وهو قرار له أهميته البالغة ، فقد كان أبوه وجده وجد أبيه قد تركوا الأمور تنزاق إلى مهوى سحيق ، ولم يتلق السلطان سعيد نفسه أي مساعدات من المستشارين الأجانب .

وقد عاش السيد سعيد بن تيمور في عزلة عن شعبه ، في صلالة ، من عام ١٩٥٨ إلى ٢٣ يولييه ١٩٧٠ حين خلفه ابنه السلطان قابوس . وتوفي السيد سعيد بعد ذلك بعام في دوشسترهاوس بلندن .

وإن السلاطين اللذين تتابعوا في حكم عمان بعد وفاة السيد سعيد الكبير هم كما يلي :

السيد ثويني بن سعيد	من عام ١٨٥٦ الى عام ١٨٦٦
السيد سالم بن ثويني	من عام ١٨٦٦ الى عام ١٨٦٨
السيد (الإمام) عزان بن قيس	من عام ١٨٦٨ الى عام ١٨٧١
السيد تركي بن سعيد	من عام ١٨٧١ الى عام ١٨٨٨
السيد فيصل بن تركي	من عام ١٨٨٨ الى عام ١٩١٣
السيد تيمور بن فيصل	من عام ١٩١٣ الى عام ١٩٣٢
السيد سعيد بن تيمور	من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٧٠

ومنذ عام ١٩٧٠ يتولى جلالة السلطان قابوس بن سعيد الحكيم وإدارة

شئون البلاد ، وفي زنجبار خلف السيد ماجد أباه السيد سعيد بعد وفاته ، واستطاع السيد ماجد الوصول إلى حكم الساحل الشرقي لإفريقية بطريقة سلمية ، بسبب شعبيته لدى معظم السكان العرب في زنجبار .

ولم يكن أخوه السيد ثويني الذي كان يحكم في مسقط راضيا عن هذا الوضع ، وقد سارع إلى المطالبة بحكم كل ممتلكات أبيه ، وأخذ يستعد للإبحار إلى زنجبار مستهدفا فرض نفسه بالقوة على ما يعتبره حقا من حقوقه ، ولكن الحكومة البريطانية حالت بينه وبين تنفيذ خططه ، وكونت لجنة للنظر في خلافات الإخوين المتنازعين ، وبينما كانت اللجنة تباشر مهمتها حاول ثويني إثارة المتاعب ضد أخيه السيد ماجد بين بعض سكان زنجبار ، وساعده في ذلك أخوه الأصغر السيد برغش .

ففي عام ١٨٥٩ دبر السيد برغش مؤامرة للإطاحة السيد ماجد ، وبدأ في لحظة ما أن المؤامرة قد نجحت لكن تدخل القنصل البريطاني في زنجبار أدى إلى إحباطها في النهاية — وأبعد السيد برغش إلى بومباي حيث عاش هناك حتى عام ١٨٦١ .

وفي نفس العام أنهت اللجنة أعمالها ، وقررت تقسيم الحكم بين السيد ثويني وبين السيد ماجد ، وتم بذلك فصل شرق أفريقية عن عمان ابتداء من عام ١٨٦١ .

وتوفي السيد ماجد عام ١٨٧٠ وعمره ٣٧ عاما وتحنه أخوه السيد برغش ،

وكان السيد برغش شخصية مرموقة ، ويشبه والده السيد سعيد في كثير من صفاته ، وقد كشفت طريقة تأمره على أخيه السيد ماجد عن مدى طموحه وجرأته ، كما كان أكثر حيوية ونشاطا من أخيه السيد ماجد . وقد آثم بولعه بالحياة المترفة ، وفي عهده جرى استخدام لقب (م ٣ - عمان وشرق أفريقية)

سلطان لأول مرة في الاستعمال خاصة بين الأوربيين المقيمين في زنجبار ، وأقام لنفسه قصراً جميلاً ، مازال قائماً - ويعرف باسم بيت العجائب - كما مد خط أنابيب للمياه من نبع شيم شيم إلى المدينة لتوفير المياه النقية للسكان ، وعندما اجتاحت إعصار رهيب زنجبار ودمر كل مزارع القطن ، ظهرت قوة شخصية السيد برغش بالطريقة التي عمل بها على الفور ، فعادت زراعة القطن إلى حالتها المزدهرة :

وفي عهده أصبح شرق أفريقيا أكثر اتصالاً بالعالم الخارجي عن طريق السفن التجارية وخطوط المواصلات السلكية ، وفي عام ١٨٦٩ فتحت قناة السويس ، وبعدها بفترة قصيرة في عام ١٨٧٢ بدأت شركة الملاحة البريطانية الهندية خدمة بريدية شهرية بين عدن وزنجبار ، وفي عام ١٨٧٩ آتت شركة التلغراف الشرقية مد خط تلغرافي بحري تحت الماء من عدن إلى زنجبار ، مما جعل الساحل على اتصال وثيق بالعالم الخارجي .

وفي عام ١٨٧٥ قام السيد برغش بزيارة رسمية لإنجلترا حيث استقبلته الملكة فيكتوريا ، وأمير وأميرة ويلز . كما زار باريس وبرلين وهو في طريق عودته إلى شرق أفريقيا .

ويعتبر عهد السيد برغش فترة لا تنسى لأنها شهدت بداية الاهتمام الأوربي النشط بأفريقية ، والقضاء التدريجي على تجارة الرقيق في شرق أفريقيا .

وفي عام ١٨٧٣ أرسلت الحكومة البريطانية السير بارتل فيرير إلى زنجبار لإقناع السيد برغش بالموافقة على معاهدة أكثر فعالية في الحد من تجارة الرقيق من تلك التي وقعها والده . ووجد السيد برغش نفسه في موقف بالغ الحرج ، وشكاً للسيد بارتل فيرير من أنه يجد بريطانيا - من جانب - تصر على القضاء على تجارة الرقيق - ويوجد من جانب آخر - دعاياه العرب يرضون مطالب الحكومة البريطانية لأنها تتعارض مع مصالحهم .

وكان الإحصار الذي دمر مزارع القرنفل وجلب الخراب على كثير من أصحاب المزارع العرب قد جعل توقيع معاهدة جديدة أمراً عسيراً على السيد برغش ، وأبدى السيد برغش اعتراضه على هذه المعاهدة ، بأن إذا استجاب للمطالب البريطانية فإن حياته ستعرض للخطر بسبب السخط الشديد الذي ستحدثه مثل هذه الخطوة بين رعاياه العرب .

وكلف القنصل البريطاني العام في زنجبار الدكتور كيرك بمفاوضة السيد برغش ، وأمام رفض السيد برغش توقيع المعاهدة ألح الدكتور كيرك إلى أن بريطانيا قد تجد نفسها مضطرة إلى استخدام القوة في حالة رفض توقيع المعاهدة ، وفي النهاية وقعت المعاهدة في عام ١٨٧٢ ، وتم في نفس اليوم إغلاق سوق العميد في زنجبار .

وتوفي السيد برغش عام ١٨٨٨ ، وخلفه أخوه السيد خليفة بن سعيد ، ولم يستمر عهد السيد خليفة سوى عامين :

وفي عام ١٨٩٠ تولى حكم زنجبار علي بن سعيد آخر أبناء السيد سعيد الكبير . وكان أبرز حدث في عهده هو إعلان جزيرتي زنجبار وبيمبا محميتين بريطانيتين ، وذلك في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٠ ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ ، وضعت الإدارات والحكومة في زنجبار في أيدي مسئولين بريطانيين ، تحت حكم السلطان الذي أصبحت سلطته محدودة للغاية ، فكان الحاكم الإسمى .

وبهذا انتهى الحكم الطموح للسيد سعيد الكبير في بناء إمبراطورية واسعة في شرقي أفريقية له وخلفائه من بعده :

ورغم أن اللوم يمكن أن يقع على عدم قدرة خلفاء السيد سعيد على إقامة حكم راسخ وفعال في هذه المناطق ، غير أن المنافسة الأوربية على الاستحواذ على مناطق في أفريقية تتحمل أيضاً جزءاً من المسؤولية . فقد كان لا بد من قوة أوربية تتقدم لتأخذ في يدها السلطة في زنجبار .

وعهد إلى مسئول بريطاني هو السير اويد ماثيوز بمهمة إعادة تنظيم الحكومة تحت الحماية البريطانية . ومنح لقب الوزير الأول للسلطان . وكان سير لوبز ماثيوز قد جاء لأول مرة إلى شرقى أفريقيا كليفنتانت في البحرية البريطانية ، ولعب دوراً فعالاً في القضاء على تجارة الرقيق . وبعد ذلك بعاهين أوفدته البحرية البريطانية لينضم إلى حامية السيد برغش في تدريب قوة عسكرية صغيرة من ٥٠٠ رجل . وقد حقق في منصبه الجايد نجاحاً كبيراً ، وأعجب السيد برغش بما حققه .

وبعد تقاعد ماثيوز من عمله في البحرية البريطانية ، عين قائداً بحيش السلطان عام ١٨٨١ برتبة بريجادير جنرال . ولذلك فإنه كان على دراية واسعة بالعرب وتقاليدهم وأساليب حياتهم ، فضلاً عن ارتباطه بشئون القصر ، إثر تعيينه وزيراً أول للسيد على إمام ١٨٩١ .

وتوفي السيد على بن سعيد عام ١٨٩٣ ، وخلفه السيد حمد بن ثويني أحد أحفاد السيد سعيد . وشهدت زنجبار اضطرابات خلال توليه المحكم ، حيث قام السيد خالد أكبر الأبناء الباقين للسيد برغش ، بمحاولة بائسة للاستيلاء على المحكم بالقوة . ولم ينجح خالد في مساعيه خلال الفترة القصيرة من حكم السيد حمد بن ثويني ، لكنه قام بعد وفاته عام ١٨٩٦ بأكثر من محاولة لاغتصاب المحكم بل أنه حتى قبل أن يوارى جسد السيد حمد التراب . اقتحم السيد خالد مع فئات من العرب المسلمين ، القصر وأعلن نفسه سلطاناً .

وقد حدث ذلك في ٢٥ أغسطس عام ١٨٩٦ ، وفي اليوم التالي قام الممثل البريطاني في زنجبار بجهود يائسة لإقناع السيد خالد بالتخلي عن السلطة ، لصالح السيد حمود بن محمد . لكنه رفض وبقي في القصر . ولذلك صدرت الأوامر للأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال راوسون ، بإقامة سياج من الحراسة على قصر القنصل البريطاني العام ، والجمارك ، والحي الأورني .

وفي صباح ٢٧ أغسطس أرسل الأدميرال إنذاراً للسيد النخالد بأن يستسلم خلال ساعتين وإلا فإنه سيفضطر إلى قصف القصر. ولم يرد السيد خالد، ولذلك بدأت ثلاث سفن حربية في قصف القصر في الساعة التاسعة صباحاً - وفي خلال نصف ساعة كان القصر قد تحول إلى شعلة من النيران، وأصبح الجزء الأوسط منه أنقاضاً، وسقط خمسمائة من أنصار السيد خالد قتلى أو جرحى في ميدان القصر.

وبعد أن رأى نخالد كل هذا هرب من القصر المحطم، واتخذ طريقه إلى القنصلية الألمانية، ومن هناك توجه سرّاً إلى دار السلام، حيث سمحت له الإدارة الألمانية بالإقامة هناك.

وقد بقي هناك إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى فانضم إلى الألمان ضد البريطانيين، ووقع في أسر القوات البريطانية عام ١٩١٧ فنفته إلى جزيرة سانت هيلانة، ثم نقلته في عام ١٩٢١ إلى سيشل.

وفي مقابل تعهداته بالتخلي عن المطالبة بالسلطة سمحت له السلطات البريطانية عام ١٩٢٥ بالعودة إلى شرق إفريقيا، والإقامة في ممباسة، حيث أمضى هناك بقية حياته، ومات عام ١٩٢٧.

وكان السيد حمود بن محمد قد تولى الحكم في زنجبار عام ١٨٩٦، وتمت مراسم تنصيبه في جو سلمى، وكان يقال عنه، إنه موال للبريطانيين تصرفاته، وقد بذل جهوداً كبيرة لتشجيع رعاياها على مجاراة البريطانيين في سلوكهم وفي طرق حياتهم، وأوفد هو نفسه ابنه السيد علي بن حمود للدراسة والتعلم في المدرسة الإنجليزية في هارو.

وقد توفي السير لويد ماثيوز في عهده، وكانت وفاته في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠١، وأعتبرت وفاته صدمة لكل أهالي زنجبار وبمبسا، نظراً لما شهدته الجزيرتان في عهده من رخاء، ولارتباطه الطويل بهذه البلاد حتى أصبح وكأنه جزء من صميم حياتها،

وقد أمضى السير لويد ماتبوز في شرق إفريقيا مدة ستة وعشرين عاماً
لم يزر فيها وطنه سوى مرتين اثنتين .

وتوفي السيد محمود في ١٨ يولييه عام ١٩٠٢ ، وخلفه ابنه السيد علي
ابن محمود ، وكان لا يزال صغيراً ، لا يستطيع تولي مسئوليات الحكم قبل
عام ١٩٠٥ رغم إعلانه سلطاناً ، فقام مستر روجرز الوزير الأول بمهام
الوصى على السلطان الصغير خلال الفترة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ .

وقد غرست إقامة السيد علي في إنجلترا للدراسة في نفسه حب الأسفار ،
فاعتاد بعد أن أصبح سلطاناً على أن يمضي فترة من كل عام في ربوع أوروبا ،
وكان أسلوب حياته زنجبار متشياً مع الأساليب الأوروبية . وقد غادر
زنجبار عام ١٩١١ لحضور حفل تنصيب الملك جورج الخامس ، وأثناء وجوده
في أوروبا قرر التنازل عن العرش . وأمضى بقية حياته في أوروبا . وتوفي
في باريس عام ١٩١٨ .

وقد خلفه في عام ١٩١١ السيد خليفه بن حارب .

وفي عام ١٩١٣ أعيث مكاتب الوزير الأول والقنصل البريطاني العام
وأستبدلت بها مكاتب جديدة ؟ هي مكتبا المقيم البريطاني ، والسكرتير الأول .
وتم في نفس الوقت تشكيل مجلس الحماية من السلطان نفسه رئيساً ، وعضوية
المقيم البريطاني . ككائب للرئيس ، وقد شمل أيضاً ثلاثة أعضاء مسئولين
وأربعة أعضاء غير رسميين لتمثيل مختلف الطوائف ،

وفي عام ١٩٢٦ حلت مجالس تشريعية وتنفيذية محل مجلس الحماية
وكان الهدف من المجلس التشريعي - الذي كان يضم عدداً من الأعضاء غير
الرسميين رغم أن غالبية من الرسميين - هو إعطاء أفراد الشعب نصيباً
أكبر من المشاركة في حكم بلادهم . بصورة أكبر مما كان معمولاً به .
وكان المجلس التشريعي محولاً بسلطة من القوانين لتوفير عدالة الإدارة .

ورفع الدخول ، وضمان الأمن والنظام ، وحسن إدارة الحماية .

وشهدت الخزيرتان خلال عهد السيد خليفة أعمالا كثيرة لتطوير مصادرها ، فقد أُنشئ ميناء جديد وشقت طرق عديدة حديثة في زنجبار وأيما . وأفادت هذه الطرق متجى القرنفل ، وسهلت انتشار خدمات التعليم والصحة ، ووصولها إلى القرى النائية في الخزيرتين ، وافتتحت مدرسة لتدريب المدرسين ، ثم بدأ تدريجيا في إنشاء مدارس إقليمية في كل جزء من المحمية . وفي عام ١٩٢٧ افتتحت مدرسة لتعليم البنات في مدينة زنجبار .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أنه كان المفروض أن تخلف السيدة معتوقة بنت حمود أختها السيد علي بن حمود بعد تنازله الأخير عن العرش عام ١٩١١ ، ولكن التقاليد السائدة كانت تمنح تولى امرأة منصب رئيس الدولة ، ومن ثم فقد تولى زوجها السيد خالد السلطنة ،

وعندما توفي السيد خليفة عام ١٩٦١ ، نودي بابنه السيد عبد الله بن خليفة سلطانا . ولم يبق السيد عبد الله طويلا في الحكم ، فقد مات عام ١٩٦٢ بعد إصابته بآلام حادة في ساقه انتهت باستئصالها .

وخلفه ابنه الأكبر السيد جمشيد بن عبد الله ، وهو آخر سلاطين زنجبار . عند إعلان استقلالها في ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ . وبعد ذلك بشهر واحد ، أي في ١١ يناير ١٩٦٤ وقع انقلاب مدبر من الخارج وأطيح بحكومته . فتوجه السيد جمشيد إلى إنجلترا للاقامة الدائمة فيها .

السلاطين البوسعيديون الذين تعاقبوا على حكم زنجبار بعد وفاة السيد سعيد الكبير ، هم كما يلي :

١٨٥٦ - ١٨٧٠

السيد ماجد بن سعيد

١٨٧٠ - ١٨٨٨

السيد برغش بن سعيد

١٨٨٨ - ١٨٩٠	السيد خليفة بن سعيد
١٨٩٠ - ١٨٩٣	السيد علي بن سعيد
١٨٩٣ - ١٨٩٦	السيد حمد بن ثويني
١٨٩٦ - ١٩٠٢	السيد حمود بن محمد
١٩٠٢ - ١٩١١	السيد علي بن حمود
١٩١١ - ١٩٦١	السيد خليفة بن حارب
١٩٦١ - ١٩٦٢	السيد عبد الله بن خليفة
١٩٦٢ - ١٩٦٣	السيد جمشيد بن عبد الله

العرب في شرقي إفريقيا

الداو ، اسم لنوع من السفن الشراعية العربية المعروفة لسكان شرقي إفريقيا ، وكان هذا النوع من السفن يقوم برحلات سنوية إلى شواطئ شرقي إفريقيا ، تحمل مختلف أنواع السلع العربية مثل البلح ، وسمك القرش الجفف ، والقهوة والسجاد .

وكانت هذه القوارب تخرج عادة من الجزيرة العربية في شهر يناير ، ثم تبحر عائداً إلى بلادها فيما بين نهاية مارس وأوائل يولية من كل عام .

وكان مما يسهل هذه الرحلات المنتظمة ذهاباً وأياباً الرياح الموسمية التي تهب من الشمال إلى الشرق في شهر ديسمبر ، وتصل بالعرب إلى الساحل الشرقي من إفريقيا ، ونهب من الجنوب إلى الغرب في مارس فتعود بهم إلى الجزيرة العربية في رحلة تستغرق ألفي ميل في مياه المحيط الهندي . وقد استفاد بحارة وتجار الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها من الرياح الموسمية طوال ما لا يقل من ٣٠٠٠ عام .

ولعب هؤلاء الملاحون دوراً هاماً في تاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا ، وكانت التوابل والعاج والعييد تجذب أنظار هؤلاء الزوار القادمين من الجزيرة العربية ، الذين تغريهم تلك السلع وتشجعهم على قطع تلك المسافة الطويلة للحصول عليها ، لما كانت تحققه تجارها من مكاسب كبيرة ،

وقد وجد العرب بالاضافة إلى ذلك سوقاً رائجة لسلعهم .

وكانت الصومال المنطقة الرئيسية للتوابل . وكان العاج من المنتجات الإفريقية الهامة ، وقد اهتم الإفريقيون الوطنيون بصيد الفيل ، الذي لم يمكن له استخدامات أخرى ، من أجل أنيابه ، وينقل العاج من داخل إفريقيا إلى الساحل ، فيباع للتجار الزائرين .

وكان الطلب على العاج كبيراً في كثير من دول الشرق ، حيث يستخدم في عمل أثاث المنازل وفي تحف الزينة .

أما تجارة العبيد فكان نطاقها كبيراً ، وقد عانت إفريقية بسبب هذا النوع من التجارة ، بأكثر مما عانى أى مكان آخر في العالم .

ولم يكن العرب العمانيون أول من زار الساحل الشرقى لإفريقية ، فقد كان السومريون الذين عاشوا بالعراق منذ ٧٠٠٠ عام أول شعب يقوم أبناؤه برحلات إلى البحار المفتوحة ، وأول من اخترع السفن الشراعية ، وقد ادهرت الحضارة السومرية لفترة امتدت ألف عام إلى أن هزمهم شعب آخرهم ، الآشوريون ، الذين لم يدمروا حضارة السومريين ، ولكنهم حافظوا عليها وطوروها .

وقام الآشوريون أيضاً برحلات بحرية ، ومن الممكن أنهم وصلوا إلى الساحل الشرقى لإفريقية حيث تركوا وراءهم مزاولة السحر التى لا تزال موجودة عارسها بعض سكان الساحل ، وتعتبر مماثلة لتلك الممارسات التى جرت بين الآشوريين والسومريين .

وهناك صلة هامة أخرى بين الآشوريين وشرقى إفريقية هى استخدام علامة القرن . التى تسمى فى السواحلية « سيوا » ، فى الكتابة والنحت للتدليل على القوة والزعامة . واستخدم الرؤساء القبليون فى شرقى إفريقية علامة مماثلة كرمز للقوة والسلطة . ويمكن مشاهدة هذه القرون الآن فى بعض المتاحف الأفريقية . وفى جزيرة لاموه بكينيا يوجد أحد قرون العاج الحميلة فى متحفها . وفى متحف زنجبار صورة لقرن كان يستخدم فى لامواه وهو مصنوع من البرونز . ويوجد فى نفس المتحف قرنان من الخشب بين مختلفات الحاكم السابق لزنجبار والذى كان يسمى « مويى مكون » .

والهنود أيضاً من أقدم من استفادوا بالرياح فى الموسمية فى التجارة مع شرقى إفريقية . وبالإضافة إلى رحلاتهم التجارية فقد أقاموا مستوطنات على الساحل ، وربما توغل بعضهم إلى الداخل إلى منطقة البحيرات الكبرى ، وقد أرسل المصنعيون بعثاتهم التجارية منذ ٥٠٠٠ عام إلى الصومال التى أسموها بونت . وكانوا يتاجرون على نطاق واسع فى الذهب والعاج .

وجلد النمر ، الذي استخدمه الملوك والنبلاء المصريون القدامى في تزيين قصورهم :

كذلك قام اليهود والفينيقيون برحلات مماثلة إلى الساحل الشرقي لإفريقية وقد عاش الفينيقيون على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وكانوا جيرانا لليهود ، واستخدموا مينائي صور وصيدا ، وقاموا برحلات تجارية إلى بلاد أفير وسوفالا للحصول على الذهب ، والفضة والعاج والقروود والطاووس ويعتقد أن تلك الرحلات تمت منذ ألف عام قبل الميلاد .

وكان للعرب الذين يؤمّون الساحل الشرقي لإفريقية دور هام ومستمر ، وأكثر تأثيراً من دور أي فريق آخر في المنطقة . وقد ظل تاريخ شرقي إفريقية مرتبطاً بالعرب ارتباطاً وثيقاً طوال ثلاثة آلاف عام ،

ولقد كان سكان المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ملاحين يتمتعون بمهارة فائقة ، وتجاراً بارزين مشهود لهم بالخبرة ، وكانت الموانئ الجنوبية للجزيرة العربية في الماضي مركزاً لازدهار تجارى كبير ، ونعمت دول أخرى صغيرة في المنطقة بالثراء والقوة :

وقد سهل الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة الاتصال بالدول القريبة في إفريقية وآسيا . فحدود الجزيرة العربية من ناحية الغرب ، حيث باب المندب ، تلامس إفريقية ، وهي من ناحية الشرق قريبة جداً من فارس ومن الساحل الغربي للهند ، وفي الشمال فإن الجزيرة العربية متصلة وقريبة من الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

كما كانت موانئ جنوب شبه الجزيرة مكاناً ملائماً للرحلات بين الشرق والغرب ، ولذلك كانت السلع من موانئ منطقة الخليج والهند تنقل على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، وتوجه إلى البحر الأحمر ، ثم إلى ميناء السويس .

وأكثر من ذلك فقد كان العرب أكثر الشعوب استفادة من الرياح الموسمية ، واحتكروا ملاحه البحر الأحمر في أبدانهم . وكانت السلع القادمة

من الشرق أولا إلى جنوب الجزيرة العربية إما عن طريق البحر ، أو بالقوافل تمر عبر الصحراء إلى الدولة المطلية على البحر المتوسط . وبذلك أصبح جنوب الجزيرة العربية سوقا ضخمة ومركزا تجاريا هاما يتم فيه تناول منتجات العالمين الشرقي والغربي . وبالإضافة إلى ذلك النوع من التجارة اكتشف العرب من سكان جنوب الجزيرة منذ ثلاثة آلاف عام أنه يمكن الاستفادة من الرياح الموسمية في إقامة تبادل تجارى مع الساحل الشرقى لإفريقية ، وأصبح من المعتاد إرسال أسطول تجارى ضخم من السفن كل عام على طول الساحل الشرقى لإفريقية كله .

ويعتبر العمانيون أول شعب يقم مستوطنات له على الساحل الشرقى لإفريقية ، فبعد انتفاضهم على حكم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هاجر جماعة منهم بقيادة سليمان وسعيد ابى الجلندى إلى شرقى إفريقية بعد هزيمتهم من جيش الخليفة الذى أرسله إلى عمان ؟

وليس معروفا بصفة أكيدة مكان استيطانهم فى المهجر الذى ذهبوا إليه فى إفريقية ، ولكن المعروف أنهم أقاموا فى جزيرة باى شمالى كينيا ، وقد لعبت هذه الجزيرة دورا هاما فى التاريخ العربى فى الأعوام اللاحقة .

والموجة الثانية من العرب المهاجرين إلى شرقى إفريقية حدثت إثر نزاع قام بين طوائف الشيعة الذين أنقسموا إلى مجموعتين متعاديتين ، وكان يقود إحدى هاتين المجموعتين زيد بن على بن أبى طالب ، وقد هزم زيد وذبح على يد أنصار الخليفة ، واضطر أنصاره للنجاة بأرواحهم ، فذهبوا إلى شرقى إفريقية حيث استوطنوا بنادير فى الصومال .

ومارس الزيديون السلطة على ساحل بنادير طوال ألفى عام ، ومع بداية القرن التاسع هاجمهم مجموعة أخرى من المهاجرين قدمت من الإحساء فى المملكة العربية السعودية .

فقد أبحر سبعة إخوة من الإحساء فى ثلاث سفن وتوجهوا إلى ساحل

هنادير حيث أسسوا مدينتي مدغشقر وبروا . ورفض الزيديون الاعتراف
بسلطة القادمين الجدد ، وتراجعوا إلى الداخل حيث تراوجوا مع الوطنين :

ونعود الآن إلى قصة حسن بن علي وأخوته الستة :

والمعروف أن حسن بن علي إما أنه أحد أبناء حاكم شيراز ، أو أنه ذلك
الحاكم نفسه . ولقد قرر لأسباب غير معروفة مغادرة شيراز . وغادر فارس
بصحبه أخوته الستة وعدد من أنصاره عام ٩٧٥ يقلهم أسطول من سبع سفن ،
وتوقف ركاب ثلاث من هذه السفن واستوطنوا أماكن مختلفة على طول
الساحل الشرقي لإفريقية . وتوقف السفينة الرابعة في ممباسة ، والخامسة في
بيمبا ، والسادسة - وهي التي تقل حسن نفسه - في كيلوا ، أما الخامسة فقد
رست في جوهانا في الكومور .

وفي كيلوا وجد حسن أن العرب يستوطنونها بالفعل فبدأ في إجراء
مفاوضات مع « لورد أو كيلوا » وهو رئيس قبلي إفريقي . واشترى منه
حسن الجزيرة واستطاع حسن وأتباعه أن يعيشوا في أمان من أي هجمات
إفريقية لأن الجزيرة كان يفصلها عن الأرض مجرى مائي عميق .
ومن بين الذين هاجروا إلى الساحل الشرقي لإفريقية الصينيون ،
والملاويون والواديبولي :

وقد نزل الصينيون على الساحل الشرقي لإفريقية في العصور الوسطى
يهدف التجارة . وعثر في عدة أماكن من الساحل على عملة وأوان فخارية
صينية تعود إلى عام ٧٠٠ ميلادية ، وأدخل الملاويون زراعة نخلة الأربعة
وقصب السكر ، ونبات التبوت المنسلق . ويعتقد أن الواديبولي قد جاءوا
من شيراز وأدخلوا زراعة جوز الهند إلى المنطقة :

مجيئ البرتغاليين إلى شرق أفريقيا

رأينا أن حسن بن علي اتخذ من كيلوا إموطنا له عام ٩٧٥ ، وقد وصل البرتغاليون إلى شرق أفريقيا عام ١٤٩٧ ، وتعرفت فترة الخمسمائة عام بين وصول أحسن بن علي وبين وصول البرتغاليين بفترة (إمبراطورية الزنج) . وتعني كلمة زنج ، السود ، واستخدمها الكتاب العرب والفرس في الإشارة إلى الساحل الشرقي لإفريقية بأنه « أرض السود » ، أو زنجبار ، وفي الأيام السابقة أطلقت كلمة زنجبار أو « أرض الزنج » ، على منطقة الساحل الشرقي لأفريقية بأكملها ،

وأثناء فترة إمبراطورية الزنج ، قامت على طول الساحل بعض الدول العربية والفارسية أو السلطانات ، وتمتعت دولة كيلوا الشيرازية بالسيادة على معظم المدن الساحلية الأخرى ، ولذلك سميت إمبراطورية

وازدهرت خلال هذه الفترة تجارة الذهب والعاج والرقيق بين ساحل إفريقية وآسيا . وتطورت المدن والمراكز التجارية على الساحل بحجمها ونحوا ، وما زالت أطلال هذه المدن تنتشر لأن على طول الساحل . ومارست كيلوا باعتبارها أقوى هذه الدول الساحلية نفوذا كبيرا على ثقافة المنطقة كلها وقد كانت فارسية الصبغة أساسا . وترك التزاوج بين المستوطنين الفرس والسكان الوطنيين علامة دائمة على سكان منطقة الساحل الذين يؤكدون حتى اليوم أنهم من أصل شيرازي .

وانشأ الشيرازيون كثيرا من المساجد الجميلة ، تحمل أسلوبا هندسيا مهيئا ، يمكن تمييزه بسهولة في أطلال المساجد الكثيرة على طول الساحل .

وقد أطاح البرتغاليون بامبراطورية الزنج .

ففي خلال القرن الخامس عشر حاول الملاحون البرتغاليون البحث عن طريق بحري إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول أقصى نقطة جنوبية في أفريقيا . وجدير بالذكر أنه بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس أعقبتها عصور الظلام التي عاشت أوروبا خلالها في حالة من الفوضى ، والجهل ، وإراقة الدماء حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر اللذين عرفا بـ « عصر الاكتشافات » ، ولم تكن هناك صلة تذكر بين أوروبا وإفريقية ، ولذلك لم يكن الأوروبيون يعرفون الكثير عن حجم إفريقية الحقيقية . وكل ما توصلوا إلى معرفته ، أنه إذا أبحرت سفينة إلى ساحل إفريقية ودارت حول نهاية القارة ، فإنها يمكن عندئذ أن تصل إلى الهند بالإبحار شرقاً عبر المحيط الهندي ،

ولم يتحقق أول نجاح كبير في هذا الصدد إلا عام ١٤٨٦ ، عندما دار الملايح البرتغالي بارثولوميو دياز حول الطرف الجنوبي لإفريقية ، وأبحر على طول الساحل الشرقي حتى بحر الأسماك الضخمة . ورفض بحارته المضى إلى أبعد من ذلك خوفاً من قسوة الجو ، واضطر للعودة إلى وطنه . وبسبب الرياح القوية اختار تسمية الرأس الجنوبي برأس العواصف ، ولكنه عندما أبلغ ملك البرتغال بمغامرته ، اقترح عليه الملك تسميته برأس الرجاء الصالح .

وبوصوله إلى تلك المنطقة يكون قد مهد الطريق إلى استكشاف الطريق إلى الهند .

بعد ذلك بعشر سنوات وصل مكتشف البرتغالي آخر هو فاسكودى جاما إلى الهند عن هذا الطريق . فقد غادر لشبونة في ٨ يوليو ١٤٩٧ ، ودار حول رأس الرجاء الصالح في ديسمبر ، وأبحر على طول الساحل الشرقي ، وتوقف في موزمبيق في ٢ مارس ١٤٩٨ . ثم واصل السير على طول الساحل الشرقي ، ورسا في ممباسا في ٧ أبريل ١٤٩٨ ، بعد أن أصيب بنكسة وهو

يحاول دخول ميناء ممباسة واصل السير إلى ماليندى حيث استقبله السكان بالكرم والرحاب . ومن هناك رافقه البحار العماني أحمد بن ماجد الذي تولى قيادة بقية الرحلة عبر المحيط الهندي . وقد غادر ماليندى بعد توقف تسعة أيام ، ووصل كلكتا بالهند في ٢٨ مايو ١٤٩٨ ، وبعد حوالي قرن من الاكتشافات وصل البرتغاليون أخيراً إلى الهند بحراً عن طريق جنوب أفريقيا وذلك بمساعدة العمانيين . وجدير بالذكر أن فاسكو دي جاما وجد في كل من موزمبيق وماليندى ، عرباً يستوطنونهما ، ولغة عربية يجرى المخاطب بها على نطاق واسع .

وأثناء عودة فاسكو دي جاما من الهند بعد حوالي عام توقف مرة أخرى في ماليندى ، وأقام نصباً تذكاريًا من الحجر في منطقة البحر في جنوب المدينة . وما زال هذا النصب التذكاري قائماً هناك ، ويعتبر من أبرز المواقع السياحية في كينيا . وقد عاد فاسكو دي جاما إلى لشبونة في سبتمبر ١٤٩٨ .

وعقب رحلة فاسكو دي جاما التاريخية إلى الهند بدأ البرتغاليون في الحال يرسلون بعثات تجارية منتظمة إلى الهند والشرق . وبدأت سفهم تظهر شيئاً فشيئاً في مياه المحيط الهندي ، وفي منتصف القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد أنشأوا إمبراطورية تجارية كبيرة في الشرق ضمت هرمز عند مدخل الخليج ، وموانئ مسقط وصحار وقريات في عمان ، ومحطات تجارية مختلفة على طول الساحل الغربي للهند ، وأجزاء من سيلان وملقا ، وعدد من الممتلكات في خليج الملايو . . . كذلك أصبح الساحل الشرقي من أفريقيا جزءاً من تلك الإمبراطورية الواسعة . وعاماً بعد آخر كانت ثروات الشرق تنقل عبر المحيط الهندي إلى البرتغال ، التي حققت تطوراً كبيراً في القوة والإزدهار .

وأدرك البرتغاليون بعد هذا النجاح أنه لا بد لهم من السيطرة على الساحل الشرقي لإفريقية حتى تكون لهم مجموعة من الموانئ المناسبة تحصل منها (م ٤ - عمان وشرق إفريقيا) .

سفنهم على الماء والطعام الذى يحتاج إليه فى رحلاتها الطويلة ، وأن تصبح مثل هذه الموانئ نوعاً من المحطات فى منتصف الطريق بين البرتغال والشرق . ولم يعتبر البرتغاليون ممتلكاتهم فى شرق أفريقية ، فى أهمية المناطق الغنية الخاضعة لهم على الجانب الآخر من المحيط الهندى .

وكان إخضاع البرتغاليين للساحل الشرقى من أفريقية ثم سقوط إمبراطورية الزنج فيما بعد - قد بدأ عام ١٥٠٢ عندما قام فاسكو دى جاما برحلته الثانية إلى الهند .

ففى طريق رحلته توقف فى كيلوا وأرغم السلطان على التعهد بدفع مبلغ سنوى لملك البرتغال . وفى العام التالى جاء قائد برتغالى آخر يدعى روى نورانزو رافاسكو وظل يبحر فى المياه المظلمة على جزيرة زنجبار لمدة شهرين ، واستولى خلال هذه الفترة على عشرين من السفن الشراعية المحملة بالعاج ، وأصداف السلاحف ، والشمع والحرير والمنسوجات القطنية . وحاول حاكم زنجبار الذى ساءت له تلك الغطرسة مقاومة البرتغاليين بتجهيز كل مدافعه والاستعداد بجيش من أربعة آلاف مقاتل . لكن رافاسكو تغلب عليه بسفنه المجهزة بالمدافع ، وأرغمه على توقيع تعهد يدفع ١٠٠ من العملة الذهبية (تساوى فى ذلك الحين ٨٧ استرلنيا) و ٣٠ من قطعان الماشية سنوياً . وفى عام ١٥٠٥ ذهب حاكم الهند البرتغالى دون فرانسيسكو دالميدا إلى كيلوا وهو فى طريقه إلى الهند

وحيث أن السلطان لم يدفع المبلغ الذى تعهد بدفعه لفاسكو دى جاما دون فرانسيسكو دالميدا أنزل ٥٠٠ من رجاله إلى كيلوا وأحرقوها . كما عزلوا الحاكم وعينوا بدلاً منه رجلاً يدعى محمد أنكونى .

ولم يجد سكان كيلوا خياراً سوى الموافقة على أن يدفعوا سنوياً ٢٠٠٠ من العملة الذهبية والاعتراف بسيادة ملك البرتغال عليهم . ثم مضى ألميدا إلى مبابسا حيث أرغم حاكمها على الاستسلام . ولما رفض قصف ألميدا

المدينة وأحرقها . وفي نفس العام بدأ البرتغاليون بناء قلاع من الحجر في كياوا وسوفالا . وأرغموا سلطان لاموت على الاستسلام في العام التالي، و دفع ضريبة سنوية لهم .

وفي عام ١٥٠٩ عين ملك البرتغال ، دون كوارت دي نيموس حاكما على جميع الممتلكات البرتغالية في أفريقيا والجزيرة العربية . ثم زاد الحاكم الجديد جزر مافيا رييمبا وزنجبار من أجل جمع المبالغ التي لم يدفعها الأهالي . وأدعن سكان مافيا ، لكن أهالي رييمبا لجأوا إلى ممباسة وأخذوا معهم معظم ما يملكون . كذلك قاومت زنجبار الحاكم . فقسام البرتغاليون بالاستيلاء على زنجبار ونهبها ، وأرغموا سكانها على الفرار إلى الأدغال .

وكما اتضح بعد ذلك . وفي وقت قصير نسيبنا - فإن جميع المدن الساحلية الهامة قد وقعت تحت سيطرة البرتغاليين ، وأنها أرغمت على دفع الأتاوة السنوية للملك البرتغال . ودرج البرتغاليون على الإبقاء على السلاطين المحليين كحكام إسميين طالما أنهم ينفذون سياسة البرتغاليين ، ويواظبون على دفع المبلغ المقرر عليهم سنويا .

وقد وقعت أحداث عديدة في القرن السادس عشر على الساحل الشرقي لأفريقية بعد أن جعل البرتغاليون من أنفسهم سادة المنطقة . ولم تخضع مدينة ممباسة سلميا لحكم البرتغاليين وقد سببت لهم متاعب كثيرة . وكانت مايندي من ناحية أخرى على علاقة طيبة بالبرتغاليين منذ وصول فاسكو دي غاما ، وظلت كذلك زمنا طويلا خلال سيطرة البرتغال على شرقي أفريقيا . كذلك أصبحت جزيرة زنجبار على علاقة صداقة بهم ، وبمرور الوقت استثنيت من دفع الضريبة السنوية . بينما ظلت جزيرة بييمبا على عداء مستمر لإزاعهم ، وكانت تؤيد شعب ممباسة في انتفاضاته ضد الحكم البرتغالي .

وعين مشول برتغالى يدعى ، نونودا كونها ، حاكما عاما في الهند عام ١٥٢٨ ، وقد توقف وهو في طريقه لتولى منصبه في زنجبار حيث تلقى عدة شكاوى من الأهالى عن استمرار إثارة جيرانهم في مبالسة للمتاعب ، وقيامهم بأعمال عدوانية .

وقد قرر ، نونودا كونها ، في الحال أن يلحق شعب مبالسة درسا قاسيا ، فشن هجوما على مبالسة . بمساعدة قوة من الجنود المحليين ، قدمهم إليه حاكما زنجبار وماليندى ، وأرغمت مبالسة في النهاية على الاستسلام ، وفرض على شعبها ضريبة سنوية كبيرة من الذهب .

وقد حدث بعد ذلك عندما علم حاكم مبالسة بمرض الحاكم البرتغالى أن تصور أنه يمكنه تأجيل تنفيذ الأوامر التي كان الحاكم البرتغالى قد أصدرها ، فغضب نونودا كونها ، وأحرق مدينة مبالسة ، ودمر مزارع جوز الهند بها .

ثم استقل سفينته وأبحر إلى الهند ، وقد أدت هذه العقوبة إلى استسلام شعب مبالسة للسيادة البرتغالية ، ولم تعد مبالسة مصدر متاعب للبرتغاليين خلال فترة طويلة بعد ذلك .

وخلال السنوات الخمس التالية حكم البرتغاليون كل المنطقة الساحلية من باراوا وحتى كيب كورينتز بدون أن يواجهوا أية متاعب . وكان حكمهم يتسم بالطغيان والقوة ، ولذلك كرههم الأهالى كراهية شديدة . وتعود الأهالى أن يطلقوا على الحاكم البرتغالى اسم « عفريت » (شيطان) .

ولم يتحمل سكان المنطقة الساحلية ، الحاكم البرتغالى طويلا ، فقاموا بالثورة على طول الساحل ، وتوالى ثوراتهم حتى نهاية القرن السادس عشر ، وفي عام ١٥٨٦ وصل إلى شرق إفريقيا قرصان تركى يدعى على

باك ، وزعم أنه موفد من سلطان تركيا ليخلص مسلمي شرقي أفريقية من طغيان الحكم البرتغالي . واستقبله حكام كيزمايو ، وفازا ، ولامو ، وممباسة ، أحسن استقبال . وقاتل البرتغاليين وطردهم من معظم مستوطناتهم . وبعد ذلك أبحر إلى البحر الأحمر ، حاملا معه قدراً كبيراً من الغنائم ، وخمسين أسيراً برتغالياً .

وقام حاكم ماليندى - الذى كان يتعاون مع البرتغاليين - بإبلاغ نائب حاكم الهند فى الحال بما جرى ، فأقبح أسطول برتغالى مكون من ١٨ سفينة فى العام التالى ، من جوا لمعاينة سكان المدن التى شاركت فى ذلك التمرد ،

وفى عام ١٥٨٩ عاد على باك إلى شرقي أفريقية ، واستقبل فى ممباسة حيث بدأ فى الأعداد لحملة ضد مدينة ماليندى . وعند ما علم نائب الحاكم فى الهند بعودة على باك ، أرسل أسطولاً من عشرين سفينة إلى ممباسة لمنع تكرار التمرد .

وفى هذه الفترة نشأ موقف غير عادى فى ممباسة . فقد وصلت من داخل القارة قبيلة من المتوحشين تسمى وازيمبا . وهم قبيلة من أكاة لحوم البشر تعيش جنوب نهر زامبىزى . وقد ظلت لعدة سنوات تنتقل فى اتجاه الشمال على طول الساحل ، وتخرب المدن التى نمر بها . وقد استولت فى عام ١٥٨٧ على كيلوا ، وبعد تدميرها أكل أفرادها معظم اللذين وقعوا فى أسرهم . وواصلت تقدمها على طول الساحل حتى وصلت إلى ممباسة قبيل وصول الأسطول البرتغالى الذى أرسل لإخماد التمرد الذى دبره على باك . ولذلك وجد سكان ممباسة أنفسهم بين نارين ، فإلى جانب المدينة على البر يتربص بهم الوازيمبسا ، ومن ناحية البحر يرسو الأسطول البرتغالى .

ووجد الوازيمبا صعوبة فى دخول المدينة بسبب تحصيناتها . ولكن الأهالى سمحوا لهم فى النهاية بالدخول بعد أن أقنعوهم بأنهم سيقاتلون معهم

ضد البرتغاليين . لكنهم ما إن دخلوا المدينة حتى انقلبوا على سكانها
وذبجوهم . وألقى الذين استطاعوا الهرب ، بأنفسهم في البحر ليقتضى عليهم
البرتغاليون الذين كانوا في انتظارهم . ووقع على بك نفسه في الأسر ونقل
إلى البرتغال .

ثم واصل الوازيمبا تحركهم شمالا وهاجموا ماليندى ، لكنهم هزموا
على يد البرتغاليين ، وقضى عليهم تماما . فقد ساعد الواسيجيجو «البرتغاليين
ضد الوازيمبا ، وهم قبيلة أخرى بدائية جاءت إلى ماليندى من المناطق
الداخلية عام ١٥٧١ .

ولم تكن جزيرة تايمبا وزنجبار قد تعرضتا لمناعب من الوازيمبا ، كما
لم تنضم زنجبار للتمرد الذى دبرته ممباسة .

وفى عام ١٥٨٧ ذبح سكان بيمبا فى ليلة واحد جميع البرتغاليين المقيمين
فى المدينة . رجالا ونساء وأطفالا .

ولقى رئيسهم - الذى تعاون مع البرتغاليين - نفس المصير ، لكنه تمكن
من الهرب فى آخر لحظة إلى ماليندى .

وفى نفس الوقت - ورغم أحداث عام ١٥٨٩ الرهيبة - فإن سكان
ممباسة استمروا فى إثارة المناعب للبرتغاليين وهو ما دفع البرتغاليين إلى مهاجمة
ممباسة مرة أخرى عام ١٥٩٢ ، وتعيين حاكم ماليندى سلطانا على ممباسة .
وقرر البرتغاليون اتخاذ ممباسة عاصمة لامتلاكهم فى شرق إفريقيا إدراكاً
منهم لأهميتها وتحصيناتها . وقرروا فى عام ١٥٩٣ بناء قلعة حصينة سميت
قلعة المسيح . ووصل أسطول برتغالى إلى ممباسة للمساهمة فى العمل ولمواجهة
أى اضطرابات .

وفى حوالى هذه الفترة زارت أول سفينة تجارية بريطانية المحيط الهندى .
وبذلك لم يعد البرتغاليون حكاماً بلا منازع يمتحنون بأرباح التجارة ، رغم

أنهم كانوا أول الأوربيين الذين يقيمون تجارة بحرية ضخمة مع الشرق .

وبينما كان القسرن السادس عشر يوشك على الانتهاء ، فإن الهولنديين والفرنسيين والإنجليز بدأوا يظهرون في الشرق كمنافسين خطرين للبرتغاليين .

وفي عام ١٦٠٠ شكل عدد من تجار لندن الأثرياء شركة الهند الشرقية بغرض التجارة مع الشرق . وكانوا قد بعثوا قبل ذلك ببضع سنوات في عام ١٥٩١ بعثة إلى جزر الهند الشرقية لاستطلاع إمكانيات التجارة مع تلك المناطق ، وكانت هذه البعثة تتكون من ثلاث سفن . إحداهما تسمى « ادوارد بونا فينتير » ويقودها سير جيمس لانكستر ، ووصلت زنجبار في ٧ نوفمبر ١٥٩١ ، وظلت هناك حتى ١٥ فبراير ١٥٩٢ ، ثم واصلت رحلتها إلى جزر الهند الشرقية وقد أعجب الزوار الإنجليز بخصوصية أرض زنجبار وبكرم شعبها .

وبالطبع لم يكن البرتغاليون سعداء بوصول أوربيين آخرين إلى الساحل وإلى مياه المحيط الهندي ، حيث كانوا يرغبون في بقاء كل تجارة الشرق في أيديهم . ولذلك حاولوا أن يحرصوا السكان ضد الإنجليز بأنهم بالوحشية ، وبأنهم يأكلون أسراهم . لكن هذه الأكاذيب لم تحقق الغرض منها ، فخلال إقامة الزوار الإنجليز في زنجبار كانت تصرفاتهم ودية مع الأهالي .

وشهدت بداية القرن السابع عشر ، ظهور عدد من السفن الإنجليزية في أماكن مختلفة على طول الساحل وكانت في طريقها إلى الهند . وفي عام ١٦٠٨ وصلت سفينة إنجليزية اسمها « أتشيسيون » إلى ييمبا للتزود بالماء ، واستقبلها الأهالي في البداية بالود ، لكنهم — بسبب تحريض البرتغاليين — انقلبوا عليها وهاجموا بعض تجارتها أثناء تزودهم بالماء .

وفي العام التالي وصلت سفينة إنجليزية أخرى تسمى « بونيون » إلى

ونجبار . وعومل ركبها معاملة جافة من البرتغاليين . وأعتقل البرتغاليون ثلاثة من بحارتها كانوا قد وصلوا إلى الشاطئ في قارب صغير . وأمام هذا التطور غير المتوقع هرب الباقون بالقارب إلى السفينة .

وكان واضحا من سلوك البرتغاليين أنهم باتوا منزعجين للغاية من وصول أعداد متزايدة من السفن الانجليزية في طريقها إلى الهند . ومع بداية القرن السابع عشر بدأت سيادة البرتغاليين على الشرق تتعرض للتهديد .

البرتغاليون في عمان

وأينا كيف وصل فاسكودى جاما إلى كلكتا في الهند ، وكيف أرسل ملك البرتغال ، فرانسيسكو ليحكم الهند . وكان البرتغاليون قبل وصولهم إلى الهند حكاماً على المستوطنات الواقعة على امتداد ساحل شرقي إفريقيا . وكان اهتمامهم الأساسي في ساحل شرق إفريقيا هو أن تكون لهم موانئ يتوقفون بها أثناء رحلاتهم الطويلة إلى الهند ، للراحة والحصول على الماء والطعام ، والقيام - إن أمكن - بقدر من التجارة . لكنهم كانوا أكثر اهتماماً بالتجارة مع الدول الأكثر ثراء في الشرق . وبعد رحلات متكررة خلال فترة تراوح بين عشر وخمسة عشر سنة ، جعلوا من أنفسهم سادة على المحيط الهندي ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة لهم ، لأن المحيط الهندي كان وقتئذ تحت سيطرة العرب وبعض الدول الشرقية ،

ولما كان حاكم كلكتا لا يشعر بوجوب نحو البرتغاليين ولا يطبق رؤيتهم في بلاده ، فإنهم مضوا جنوباً في الهند ووصلوا كوتشين حيث شيدوا قلعة بها . ومن كوتشين هاجموا السفن العربية في بحر العرب . وفي عام ١٥٠٩ قابل ألميدا أسطولاً من السفن العربية والمصرية فهزمه . وبذلك استولى على تجارة المحيط الهندي من العرب وأصبحت بعدها في يد البرتغاليين .

وقام ألفونسو دالبوكيرك - الذي عين نائباً للملك في الهند بعد ألميدا - بالجهد الأكبر لتحويل البرتغال إلى قوة تجارية رئيسية في الشرق . واختار أماكن ليقم فيها البرتغاليون قلاعاً لحماية سفنهم على طرق التجارة

الرئيسية ، كما تساعدهم هذه القلاع على منع العرب من استخدام تلك الطرق .

وجدير بالذكر أن العرب تبادلوا التجارة في الماضي مع فارس والشرق الأوسط عن طريق منطقة الخليج ، ومع مصر عن طريق البحر الأحمر . ولذلك أراد البوكيرك أن يوضع حداً لتلك التجارة ، حتى تحتكر السفن البرتغالية نقل السلع عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وتنفيذاً لتلك الخطة استولى أولاً على هرمز ، الواقعة عند مدخل الخليج ، ثم استولى على سقطرة في خليج عدن ، وبعد أن استولى عليهما تأكد له أن السفن العربية لن تستطيع استخدام الخليج والبحر الأحمر للوصول إلى موانئ الشرق الأوسط من المحيط الهندي .

ومن هرمز توجه البوكيرك إلى عمان ، وعندما وصلها عام ١٥٠٧ (ويذكر بعض المؤرخين أن ذلك حدث عام ١٥٠٨) أحرق أسطولاً للصياد في رأس الحد ، ثم هدد سكان مدينة قلهاة الذين دانوا له ، فقد كانوا غير مجهزين للدفاع عن أنفسهم .

وقد أظهر سكان قريات استيائهم من الأعمال الوحشية التي ارتكبتها البوكيرك ، فرد على وقفهم هذا باقتراف مزيد من الفظائع ، وحرق المدينة ، ودم معالمها ، ثم غادرها إلى مسقط ، وقد أثارت اهتمامه بمزارعها وحدائقها وأسواقها ، التي كانت تزخر بمختلف السلع ، ومن ذلك الوقت أعلنت مسقط كجزء من مملكة هرمز البرتغالية .

وقد وصف البوكيرك نفسه مدينة مسقط وأبدى إعجاباً بها وبروعتها ، وقرر إخضاعها لسلطان البرتغال ، وفرض عليها جزية سنوية .

وقبل أن يبدأ التفاوض حول مطالبه غير رأيه بسرعة وأمر رجاله بنهب المدينة وتدمير كل السفن الراسية في منائها . وتعرض الأهالي للقتل ،

أما الذين بقوا منهم على قيد الحياة فقد قطعت أذانهم وأنوفهم ، ثم تقدم البوكيرك نحو صحار ، ونحور وكان ومنها إلى هرمز حيث استولى عليها في أكتوبر ١٥٠٧ .

وأقام البرتغاليون في الفترة من ١٥٠٧ - ١٦٥٠ امبراطورية تجارية قوية في منطقة المحيط الهندي ، وكان اهتمامهم الأساسي ينصب على التجارة ، ولم يكن لديهم اهتمام بالسكان المحليين للمدن الساحلية التي أخضعوها . وكلما إلزم الناس الهدوء تركوا ليعيشوا في سلام ، ولكنهم كانوا يتعرضون لعمليات قمع إذا أثاروا المتاعب .

ولم يكن ساحل عمان مركز النشاط التجاري البرتغالي ، ولكن كان جزءاً هاماً من تلك العمليات ، وقد أقام البرتغاليون خلال إقامتهم في المنطقة أربع قواعد رئيسية على طول الساحل في قريات ، ومسقط ، وقلهات ، وصحار . واعتبرت قاعدة مسقط أكثرها أماناً ، ولذلك أصبحت مركز نشاطهم كله . وأصبحت هرمز العاصمة الإقليمية .

وشيدت مجموعة من المباني استكملت حوالي عام ١٥٣١ واحتلت مساحة كبيرة قرب مكتب الجمارك في مسقط ، في مواجهة قاعة الميراني وسميت بالجزيرة ، وكانت تضم قصر الحاكم ، وثكنات عسكرية ، ومخزناً للسلاح ، ومصنعاً ، وكنيسة . وكانت مركزاً للإدارة البرتغالية . وقد ظل أحد هذه المباني قائماً ، ويعرف باسم بيت جريزة ، وقد تم هدمه وإعادة بنائه على نفس النمط الهندي للمحافظة على شكله التاريخي . ويقال إن هذا المبنى قد استخدم كقصر مؤقت للسيد سلطان بن أحمد من عام ١٧٩٣ حتى عام ١٨٠٠ ، عندما استكمل بناء قصره . ويوجد الآن فوق نفس موقع هذا القصر ، مقصر الحديد الذي بناه جلاله السلطان قابوس بن سعيد ، وفي عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء قلعتي الجلالي والميراني .

وقد تم تجديد قلعة الجلالى عام ١٥٨٧ والميراني عام ١٥٨٨ حيث اتخذتا شكلهما الحالى . وقد بنى مليشوار كالكا قلعة الجلالى وكانت تسمى قلعة سان جواز ، وبني دون مانويل دى سوزا كوتيهو قلعة الميراني التى كانت تسمى قلعة كابتن .

وقد توفى البوكيرك عام ١٥١٥ لكن البرتغاليين لم يتوقفوا . فقد تحركوا بحراً فى إتجاه الشرق ووصلوا إلى الصين واستولوا على جزيرة ماكاو عام ١٥٥٧ .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث تدفق للتجار الأوربيين الآخرين من هولندا وبريطانيا وفرنسا ، وبدأوا يهتمون بمنطقة الخليج .

إنهيار البرتغال

مع اقتراب نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بدأت قوة البرتغاليين في الشرق في الأفول . وأوجد ظهور دول أوربية أخرى في المحيط الهندي تحدياً للاحتكار الذي كان البرتغاليون يتمتعون به من قبل في هذه المنطقة . يضاف إلى ذلك أن الأمراض الاستوائية والمعارك المستمرة التي أدت إلى تناقص عدد المستوطنين البرتغاليين في المنطقة إلى الحد الذي أصبح فيه من العسير وجود ما يكفي من الرجال لحراسة ممتلكاتهم الممتدة على مناطق واسعة .

وكانت الكراهية العنيفة لهم من الناس المدين أخضعوهم ، سبباً آخر عجل بإنهيار البرتغاليين . ففي القرن الأول من ظهور سلطتهم في الشرق ، ارتكبوا كثيراً من الأعمال الوحشية ، والغدر بالناس ، والاستيلاء على أمواتهم ، ولم يُفعلوا شيئاً لاعتساب ود أو احترام رعاياهم . ولم يكن غريباً - على ضوء قسوتهم وخطرتهم - أن ينتهز رعاياهم أول فرصة متاحة للتمرد على حكمهم .

وجاءت أول ضربة عنيفة لحكم البرتغاليين في عام ١٦٢٢ عندما طردهم الفرس من هرمز . وكانت جزيرة هرمز التي أخضعوها عام ١٥١١ ذات أهمية بالغة لهم لأنها مفتاح اللتحول إلى منطقة الخليج .

وجاء طرد البرتغاليين من هرمز على مرحلتين ، الأول : تولى الشاه عباس العرش في فارس عام ١٥٨١ ، والثاني حدوث أول اتصال لبريطانيا مع فارس من خلال بعثة شيرلي عام ١٥٩٨ . وقد أعقب هذه البعثة منح شركة الهند الشرقية في عام ١٦٠٠ . امتيازاً يسمح لها إقامة مصالح

بريطانية في منطقة المحيط الهندي . وقد نتج عن اتصال البريطانيين مع
الشاہ عباس منح بريطانيا مركزاً تجارياً في جزيرة جاسك على ساحل هـ. مز
عام ١٦١٦ .

وكان الشاه عباس مهتما بطرد البرتغاليين من هرمز .

بينما كان اهتمام بريطانيا منصبا على توسيع مصالحهم التجارية . وقد
وحد الجانبان قوتيهما عام ١٦٢٢ ونجحاً في طرد البرتغاليين من هرمز .
وامتعت شركة الهند الشرقية عن مشاركة الفرس في مزيد من الغزوات
خاصة ضد مسقط ، ومضى الشاه وحده فقام بالاستيلاء على خور فكان
وصحار ، وأنشأ قاعدة جديدة فيما يعرف الآن ببندر عباس التي سماها
على اسمه .

وامتد طرد البرتغاليين من هرمز بسرعة إلى الشرق ، وقد شجع شعوبا
أماكن أخرى على التمرد عليهم .

ولذلك وقعت انتفاضات خطيرة عام ١٦٣١ في كل الدول الساحلية ،
في شرق إفريقيا . وبدأت الثورة في ممباسة التي كانت خاضعة في ذلك
الوقت للسلطان يوسف ، وكان هذا السلطان قد لا تعلم في جوا على يد
البرتغاليين ثم تحول إلى اعتناق المسيحية على أمل أن يتمكن من إبقاء
ممباسة موالية للبرتغاليين بعد تعيينه سلطاناً وذلك للحفاظ على مركزه .
لكن سلطان ممباسة بدأ في التمرد على الحاكم البرتغالي للممباسة بسبب
إجراءات القمع الوحشية التي يتخذها . وفي عام ١٦٣١ حدث نزاع خطير
بين الحاكم البرتغالي والسلطان يوسف ، فجمع في السر ٣٠٠ من الجنود
الوطنيين واقتحم القلعة وأنهال على الحاكم طعنا حتى الموت . وانطلق من
القلعة إلى الحى البرتغالي في المدينة وأحرقه تماماً وقتل جميع السكان البرتغاليين .
أما الذين نجوا من الموت فلأنهم لحوا إلى دير محاور واحتموا به لمدة سبعة

أيام . ثم وافقوا على الاستسلام للسلطان يوسف بشرط المحافظة على حياتهم . ولكن ما إن بدأوا في مغادرة الدير حتى قتلهم جنود يوسف . وبذلك فقد حوالى مائة برتغالى حياتهم .

وعندما ذاعت أنباء هذا الحادث ، بدأت ثورة عامة ضد البرتغاليين على طول الساحل . وأخذت ييمبا دورا رئيسيا في هذه الثورة . وفي الوقت نفسه وصلت الأنباء المفزعة إلى نائب الملك في الهند ، الذى أسرع بإرسال أسطول لمعاكبة المتمردين . ورسا الأسطول في ممباسة في يناير ١٦٣٢ ، وبدأ في محاصرة المدينة . وبعد حصار إستمر ثلاثة شهور ، بدون أن يحقق أى نتيجة ، قرر القائد البرتغالى العودة إلى الهند لتجهيز قوة أكبر . وترك سفينتين لحراسة مدخل الميناء . وبعد رحيله إستولى يوسف على السفينتين .

ولأن يوسف كان يعرف أن البرتغاليين سوف يعودون بقوة أكبر ، فإنه فر الهرب . ومن ثم قام بتجريد القلعة من تجهيزاتها ودمر المدينة ، وأبحر إلى الجزيرة العربية . وطوال العامين اللاحقين سبب يوسف للبرتغاليين متاعب مستمرة بمهاجمة ونهب مستوطناتهم في مدغشقر ، وجزر الكومور ، وفي داخل القارة . ولكنه قتل في نوفمبر ١٦٣٨ عندما كان يقاتل ضد بعض العرب وكان هذا آخر سلاطين ممباسة .

وفي نفس الوقت عاد البرتغاليون إلى ممباسة وعاقبوا المتمردين على طول الساحل بقوة بالغة . وفي عام ١٦٣٥ كان يبدو أن البرتغاليين قد أعادوا فرض سيطرتهم على ساحل شرقى إفريقيا . لكن انتصارهم لم يدم طويلا ، لأن عنصرا جديدا - هم العمانيون العرب - قد بدأ يظهر على المسرح هذه المرة ففضى نهائياً على سيطرة البرتغاليين على المنطقة .

ولعب شعب عمان دوراً هاماً في طرد البرتغاليين من عمان وكذلك من الساحل الشرقى لإفريقية .

إن الروح الاستقلالية لدى العمانيين قد جعلتهم ينظرون إلى سيطرة البرتغاليين كتجربة مريرة ، فكانوا يتلهفون إلى الفرصة التي يستعيدون فيها استقلالهم .

ولذلك فقد بدأت بعد هزيمة البرتغاليين في هرمز عام ١٦٢٢ موجة نشطة ضد الأجانب . وقد حققت هذه المرجة هدفها أثناء حكم الإمام سلطان بن سيف ، وبعد ١٥٠ عاما من السيطرة البرتغالية ، انتقم العمانيون لأنفسهم في النهاية وذلك في ٢٣ يناير ١٦٥٠ .

وقد تخلف الإمام سلطان بن سيف عمه عام ١٦٤٩ ، وكان عمه قد نجح في مساعيه لطرد البرتغاليين من الساحل العماني . وعندما انتخب الإمام سلطان إماما ، فإنه قرر إنهاء المهمة بطرد البرتغاليين من مسقط . ولذلك نخرج على رأس جيشه من عاصمته الرستاق وقام بعدة هجمات غير ناجحة على المدينة ، بسبب تعزيز البرتغاليين للدفاعاتهم في مسقط بعد طردهم من هرمز .

ونصح تاجر هندي يقيم في مسقط يدعى ناروتيم الإمام سلطان بن سيف بشن هجومه في أحد أيام الأحد . وكانت لناروتيم ابنة يرغيب القائد البرتغالي في الزواج منها ، ولم يجد مهربا من إتمام هذا الزواج سوى طرد البرتغاليين من البلاد . ولذلك كتب خطابا للإمام سلطان يقترح عليه القيام بهجومه في يوم أحد ، وقام في الوقت نفسه باقناع القائد البرتغالي لحامية مسقط ، بأن يفرغ صهاريج المياه في قلعتي الجلالى والميراني ، وكذلك نقل البارود والمخيرة من مخازنها ، على أساس ضرورة تجديد كل شيء في القلاع ، ما دام المتوقع تعرضها لحصار طويل .

وفي يوم الأحد ٢٣ يناير ١٦٥٠ شن سلطان بن سيف هجوما عنيفا ، واكتشف أن جميع الجنود البرتغاليين كانوا سكارى ، ولذلك استولى بسهولة على القلعتين .

لكن ضابطا برتغاليا يدعى كابرينا قام رغم كونه محمورا بهجوم مضاد على رأس مجموعة صغيرة من الجنود ، لكنه وجد نفسه محاصراً بالأعداء ، وتقهقر إلى سوق القطن ، حيث وجد نفسه معرضاً للهجوم بالرمح - والبيض الفاسد - كما قيل ، وكانت تلك نهاية البرتغاليين في إعمان .

والإمام سلطان بن سيف ينتمى إلى أسرة اليعاربة ، وشهدت المنطقة في عهده تكثيف المصالح البريطانية ،

وعقب نجاحه في طرد البرتغاليين عام ١٦٥٠ ، استقبل الكولونيل رينزفورد الذي أرسلته شركة الهند الشرقية للتفاوض على عقد معاهدة لإقامة وجود للشركة هناك ، لكن المعاهدة لم توقع بسبب وفاة رينزفورد .

وغير الإمام سلطان رأيه بعد ذلك وقرر عدم السماح بأى وجود استيطاني أوروبي في مسقط . واتخذ خلفاؤه من بعده نفس الموقف .

وركز الإمام سلطان بن سيف على الاهتمام بالبحر . وقاد عمان لأول مرة إلى طريق الرخاء الوافر داخليا وخارجيا . وبدأ فور قيامه بطرد البرتغاليين ، ببناء بحرية قوية .

وعندما وصلت أنباء نجاحه إلى شرق إفريقيا ، قرر شعب ممباسا طلب المساعدة من الإمام سلطان بن سيف لطرد البرتغاليين من ممباسا . وكان طبيعيا أن يتوجهوا إليه بهذا الطلب ، ليس لأنهم مسلمون فحسب ، ولكن أيضاً لأن بلادهم قد عانت الكثير تحت الحكم القمعي للبرتغاليين .

ووافق الإمام سلطان على طلبهم بترحاب ، وأرسل في عام ١٦٥٢ ، أسطولاً صغيراً من مسقط لمساعدة شعب شرق إفريقيا في جهودهم لطرد البرتغاليين . وقد هاجم وأحرق المستوطنات البرتغالية في زنجبار وباني ، وحدثت على ضوء نجاحه ثورات عامة في كل المدن الساحلية ضد حكم البرتغاليين . ولكن البرتغاليين صمدوا لبعض الوقت وتمكنوا من سحق تلك الثورات .

(م ه - عمان شرق إفريقيا)

وعاد شعب الساحل يطلب من الإمام في مسقط إرسال أسطول آخر لمساعدتهم . وفي عام ١٦٦٠ عبر الإمام سلطان مرة أخرى المحيط الهندي ، وبعد حصار طويل نجح في الاستيلاء على ممباسة من البرتغاليين . ولم يكن ممكنا أن يبقى الإمام سلطان بن سيف طويلا في ممباسة وكان عليه أن يعود إلى عمان ، حيث كانت الاضطرابات قد اشتعلت هناك في غيابه . وكان ذلك تطورا مرئيا لشعب ممباسة ، لأنه ما إن غادر الإمام سلطان بلادهم حتى عاد البرتغاليون واستولوا على ممباسة من جديد ، وأنزلوا أشد العقاب بالأهالي نمردهم . وأدى ذلك إلى زيادة كراهية الأهالي للبرتغاليين بأشد مما كانت ، وصمم الأهالي على انتهاز الفرصة المناسبة لتنظيم ثورة جديدة .

وفي نفس الوقت مات الإمام سلطان بن سيف في عمان عام ١٢٨٠ . بعد حكم دام ١٩ عاما . وخلفه ابنه سيف بن سلطان الذي تولى الحكم من عام ١٦٨٠ - ١٧١١ . وورث الإمام سيف عن أبيه روحه الميالة للقتال ، ومن ثم فقد أكمل ما بدأه أبوه . وعاد سكان شرق أفريقيا يتصلون بالإمام سيف طالبين مساعدته بصفة عاجلة ضد البرتغاليين مثلما فعل والده ، وقد عمل الإمام سيف على توسيع حجم الأسطول العماني الذي تكون من ٢٨ سفينة ، وقيل إن أكبر سفنه كانت تحمل عددا من المدافع ، كان بعضها قد تم الاستيلاء عليه من البرتغاليين .

وقد وافق الإمام على مساعدة أهالي الساحل . وقام بنفسه في مارس ١٦٩٦ بحصار ممباسة . واستمر الحصار ٣٣ شهرا ، وفي ديسمبر ١٦٩٨ استولى الإمام سيف على قلعة يسوع ، وبالتالي جعل من نفسه سيد جزيرة ممباسة .

وقد نجح في العام التالي في طرد البرتغاليين من جزيرتي بيimba و كيلوا ، كما حاول أن يأخذ من أيديهم موزمبيق التي كانت أقوى قلاعهم على الساحل الشرقي الإفريقي على الإطلاق . لكنه لم ينجح في ذلك ، وظلت

عوز مبيق في أيدي البرتغاليين حتى بداية السبعينات من القرن العشرين عندما استتات بعد الثورة التي وقعت في البرتغال نفسها .

وفي عام ١٧٠٠ بالتحديد وبعد حملات عسكرية متكررة ، أصبح خط الساحل بأكمله من مقديشيو ثم جنوبا إلى كياوات تحت سيطرة عمان ، ورغم محاولات البرتغاليين المتكررة لاستعادة سلطتهم هناك ، إلا أنهم لم يحققوا أى نجاح .

واضطر الإمام سيف للعودة إلى عمان ، حيث اهتم بتنفيذ عدد من المشروعات العامة ، خاصة إعادة تشغيل قنوات الري (الأفلاج) ، وتشيد قنوات جديدة ، حيث كانت الحياة في عمان تعتمد على هذه الأفلاج في الزراعة .

وفي عهده أصبحت عمان دولة قوية - رغم أن أمجاده دفنت معه عند وفاته عام ١٧١١ ، لكن بقيت عشرات الألوف من أشجار النخيل التي زرعت في عهده ، مصدر أرخاء شعبه .

وبالنسبة لشرق إفريقيا ، فقد أصبح حكم المدن الساحلية الهامة في أيدي العرب العمانيين . فقد عين ناصر بن عبد الله المزروعى حاكما على ممباسة ، ووضعت زنجبار تحت حكم واحد من أسرة الحرث ، بينما عين أحد أفراد أسرة النباهنة واليا على جزيرة باني ، وأصبحت ييمبا تحت حكم حاكم ممباسة .

ظهور أسرة البوسعيد

شهدت عمان سلسلة من الحروب الأهلية والمنازعات القبلية على مدى
سنوات في أعقاب وفاة الإمام سيف بن سلطان .

وقد شجعت تلك الأحداث البرتغاليين على القيام بمحاولات جديدة
لاستعادة ممتلكاتهم التي فقدوها على الساحل الشرقي لإفريقية . ومن ثم
فقد نظموا حملة نجحت في استرداد مملكة عام ١٧٢٧ . لكن هذا النجاح
كان قصير الأمد لأن العثمانيين العرب قاموا بعد سنتين بطردهم من مملكة
وكذلك من أماكن أخرى على طول الساحل ، كانوا قد نجحوا مؤقتاً في
استعادة وجودهم بها .

وقد تفاقم الاضطرابات في عمان عندما عند تولى حفيد الإمام سيف
بن سلطان ، الإمامة عام ١٧٢٨ . ولم يستطع بسبب ضعفه وعدم نصحه
أن يمارس سلطانه ، وقد اتخذ قراراً غير حكيم ، بأن طلب من شاه فارس
مساعده في إخماد الاضطرابات المحلية في عمان .

وقد استجاب الشاه لطلبه ، وبدلاً من أن يساعد الإمام الشاب ، فإنه
قام بغزو عمان واستولى عليها ، وعامل الأهالي بأسلوب غير إنساني .

ولم يحتمل شعب عمان سلوك الشاه ، فقرر أن أفضل سبيل لإنقاذ
بلادهم من هذا الوضع السيء ، هو التخلص من ذلك الإمام الذي أثبتت
أنه ضعيف وغير جدير بمنصبه ، وانتخاب إمام جديد من أسرة مختلفة
تماماً .

و عام ١٧٤٤ انتخب أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد إماماً . وحيث
إنه أول إمام من عائلة البوسعيد ، فإنه يعتبر مؤسس أسرة البوسعيد التي

تحكم عمان حتى اليوم . ويستخدم أعضاء الأسرة الحاكمة لقب آل سعيد للتمييز بينهم وبين الأعضاء الآخرين من عائلة البوسعيد الذين لا ينتمون مباشرة للأسرة الحاكمة .

وكان منصب والي حصار هو آخر منصب يتولاه الإمام أحمد قبل تعيينه إماماً لعمان . وأثناء توليه حصار جمع جيشاً وقاتل الفرس الذين غزوا حصار عام ١٧٣٧ وأنزل بهم الهزيمة . وكان الإمام أحمد قد بدأ حياته العملية تاجراً ، وتم ترشيحه للإمام سيف بن سلطان اليعربي كشخصية تتمتع بالكفاءة والشجاعة وبعد النظر وقد أصبح بعدها - عندما حان الوقت - موضع سر الإمام ومساعدته الأيمن في الشؤون التجارية .

وقد شجع الإمام أحمد - عندما أصبح إماماً - التجارة ، واستعادت مسقط في عهدِه وضعتها السابق كمدنية مزدهرة ومركز تجارى . رغم أن هاضمته كانت مدينة الرستاق على بعد ١٥٠ كياو متراً من مسقط .

وكانت تمثل موقفاً استراتيجياً لحفظ التوازن بين الساحل والداخل . وخلال فترة حكمه التي استمرت ٣٩ عاماً ، خاض حروباً طويلة للقضاء على التحديات التي واجهته من جهات عديدة ، خاصة من اليعاربة ، ومن الغافرين وجاءته آخر التحديات من أنجاله أنفسهم - سيف وسلطان عام ١٧٨٢ قبل عام واحد من وفاته ؛ وقد وقع القتال بينهما في مسقط حيث قام الأب وأبناءه بقصف كل منهما الآخر عبر الميناء . وكان الإمام أحمد يطلق نيرانه من قلعة الميراني ، وأبناءه يطلقان نيرانهما من قلعة الجلالى ، ويحتفظان بأخيهما الأصغر سعيد كزهينة . واستطاع سعيد الهرب ، فخفف الإمام أحمد من هجومه .

وقد توفي الإمام أحمد عام ١٧٨٣ وخلفه ثلث أبنائه سعيد ، لأن ابنه الأكبر هلال لم يكن أهلاً للحكم لأنه كان ضريباً ، وقد أثبت الإمام سعيد ابن أحمد كفاءته كقائد ديني ، لكنه فشل كحاكم ، ولذلك انتزع

إبنه حمد السلطنة السياسية منه ، ونقل العاصمة إلى مسقط ، حيث تولى
الحكم تحت لقب السيد ، وقد بقي والده في الرستاق لا يزال أية سلطة
حتى وفاته ، وكان هذا فيما بين سنتي ١٧١١ و ١٨٢١ م

١٠ ولقد رأينا أن الإمام عندما عاد من شرقي إفريقيا إلى عمان قد عين على
المدن الساحلية الهامة في شرق عمان حكاماً من العرب العمانيين . ونظراً
إلى أن هؤلاء الحكام كانوا يدركون الأحوال المضطربة في عمان ، ويعلمون
أن الإمام غير قادر على التدخل في شئون شرقي إفريقيا فقد رفضوا الاعتراف
بسلطة الحاكم العماني والخضوع له ، وجعلوا أنفسهم سلاطين مستقلين
للمدن التي عينوا عليها .

ففي مدياسة كان الحاكم المزروعى القوى ، الذى ظل يحكم مستقلاً لفترة
طويلة ، قد فرض سيادته على كل الساحل الإفريقى من ماليندى في الشمال إلى
بانيانى في الجنوب ، وكذلك على جزيرة بيمبا .

١١ ومن ناحية أخرى فإن حاكم باقى الذى ينتمى إلى أسرة النباهنة قد رفض
هو الآخر الخضوع لإمام عمان .

١٢ وقد ظلت عائلتا المزروعى في مدياسة والنهبانى في باقى في حرب مستمرة
ضد بعضهما البعض خلال جزء كبير من القرن الثامن عشر . وكانت كل منهما
ترغب في أن تكون لها السيادة على ساحل شرقي إفريقيا . ومن ثم فقد
عانى شعب الساحل بصفة مستمرة من المنازعات والمنازعات بين حكامهم
العرب المختلفين ، ومن المشكوك فيه أن يكون الأهالى قد عاشوا في ظلهم
ظروفاً أفضل من الظروف التي كانوا قد شهدوها من قبل تحت سيطرة
البرتغاليين .

١٣ لكن جزيرة زنجبار ظلت مع ذلك على ولائها لحاكم عمان خلال
فترة الاضطرابات التي سادت مدياسة وبيمبا في بقية الساحل .

وفي عام ١٧٤٦ أرسل الإمام أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد قوات إلى زنجبار لحفظ الأمن ومواجهة المزاريع في ممباسة ،

لكن الإمام أحمد لم يستطع مع ذلك زيارة ممتلكاته في شرقي أفريقية ، ولم يظهر الاهتمام النشط مرة أخرى بشئون شرقي أفريقية ، إلا عندما أصبح الإمام السيد سعيد بن سلطان حفيد الإمام أحمد بن سعيد حاكماً على عمان في عام ١٨٠٦ .

لقد تحدثنا عن سيرة وأعمال السيد سعيد في الفصل السابق ، وعلمنا الآن أن نرى كيف تصرف إزاء موقف الحكام العرب الذين لم يحافظوا على ولائهم لعمان .

ولقد كان اهتمام السيد سعيد مركزاً على حل المشكلات الداخلية في عمان خلال العشرين عاماً الأولى من حكمه ، ولم يكن قادراً على إعطاء اهتمام أكبر لممتلكاته في شرقي إفريقية ، رغم إدراكه التام للمشاكل التي سببها الحكام غير المتزمين بسيادته في المنطقة ،

وقد قرر بمجرد استتباب النظام في عمان ، أن يلتقى بنظرة على هذه الحال غير المرضية لإبتداء بمباسة .

وانطلاقاً من هذا القرار غادر مسقط في بداية عام ١٨٢٨ على رأس أسطول كبير ، ووصل إلى ممباسة ، ومن هناك خاض مع المزاريع انتهت بهزيمة الحاكم المزروعى الذى أذعن ووافق على توقيع معاهدة تعترف بسيادة السيد سعيد . ونتيجة لذلك ترك السيد سعيد ٣٠٠ من الجنود البلوش في قلعة يسوع ، وأبجر هو إلى زنجبار حيث مكث هناك ثلاثة شهور . وما يذكر أن زنجبار كانت موالية لحكام عمان منذ فترة طويلة ، ولذلك استقبل السيد سعيد هناك بحفاوة بالغة . وقد لفت انتباهه خصوبة أرض الحيرة وموقعها الثري على الساحل الشرقى . وربما بدأ يفكر أثناء

تلك الزيارة في إمكان اتخاذ زنجبار عاصمة المستعبد الملكة في شرقي إفريقيا ٥

وغادر السيد سعيد زنجبار عندما بدأت الاضطرابات في عمان ، بينما عاد المزاريح إلى مهاجمة ممباسا ومنتعوا الطعام عن الجنود حتى أرغموهم على الاستسلام :

وخلال ثلاث سنوات أرسل السيد سعيد ثلاث حملات من مسقط ضد المتمردين من رعائاه في ممباسا . واستطاع القضاء على التمرد هناك عام ١٨٣٧ . ووقع في الأسر راشد بن سالم رئيس قبيلة المزاريح و٢٦ من أنصاره وحكم عليهم بالسجن المؤبد في بنار عباس التي كانت تحت الحكم العماني ذلك الحين . وبذلك عادت ممباسا لحكم السيد سعيد ولم تنشأ أي مناهة أخرى .

وفي عام ١٨٣٢ قرر السيد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له والإقامة فيها ، وأدى ذلك القرار إلى نقل مقر السلطة : فبدلاً من أن يحكم شرقي إفريقيا من عمان فإنه بدأ يحكم عمان من شرقي إفريقيا . . وقد اتخذ ذلك القرار رغم أن ممباسا وكياوا كانتا في ذلك الوقت أكثر أهمية من زنجبار — لكن السبب الرئيسي لاختياره يرجع إلى موقعها الرائع ٥

فهي تقع على مسافة بضعة أميال من الساحل الشرقي . وكانت زنجبار تتمتع بإمكانيات التحول إلى مركز رئيسي للتجارة في شرقي إفريقيا كلها ، وكان السيد سعيد شديد الاهتمام بتطوير التجارة في تلك المناطق ، وكان يدرك أن هناك فرصاً طائلة للتجارة فيها . وقد أراد أن يقيم مراكز تجارية داخل إفريقيا ، تبدأ من شرق زنجبار وتمتد إلى الداخل حتى الكونغو . وأدرك أن زنجبار سوف تصبح بحكم موقعها مكاناً للتجميع والتوزيع لمعظم السلع التي تأتي إلى الساحل من الداخل .

وكانت هناك عدة أسباب أخرى أمالت على السيد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له . فمدينة زنجبار بها موانئ عميقة تصالح لرسو السفن الضخمة . كما أن الجزيرة بها موارد لا تنفذ من مياه الشرب البتية : لا مثيل لها على خط الساحل بأكمله . وكان يعرف أن ذلك سيجذب كثيراً من السفن المارة وهو ما ينهش التجارة . ثم إن زنجبار كانت منطقة مختصة جداً ، ولا شك أن ذلك كان له أكبر الأثر على السيد سعيد الذي كانت له اهتمامات كبيرة بالزراعة .

لقد ثبتت حكمة قرار السيد سعيد برضوح قبل نهاية جهده . فان زنجبار التي كانت عبارة عن مجموعة صغيرة من الأكراخ يسكنها الأهالي الوطنيون قد تطورت بسرعة وأصبحت أضخم وأهم مدينة على ساحل شرقي أفريقية وشجع السيد سعيد العرب على استيطان زنجبار ، وتبعه الكثيرون الذين سرعان ما بدأوا في التوغل إلى داخل أفريقية كتجار ومستكشفين . وبدأ عصر من الازدهار الكبير ، وانتعشت التجارة على الساحل بطريقة لم تشهدها هذه المنطقة من قبل . وكلما توغل التجار العرب أكثر فأكثر إلى الداخل ؛ كلما انتشر صيت ونهوض حاكم زنجبار في أفريقية . حتى أدى ذلك إلى ظهور مثل يقول : عندما يعزف أحد على المزمار في زنجبار فلأنهم يرتصون في البحيرات » .

وفي عهد السيد سعيد بدأ ساحل شرقي أفريقية يجذب من جديد اهتمام الأوربيين بشكل جدي . وقد بدأ السيد سعيد كل جهده لتشجيع التجار الأوربيين على الإقامة في زنجبار ، وذلك بهاتف تجارة ورخاء البلاد .

وفي عام ١٨٣٣ عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية ؛ وفي عام ١٨٣٧ افتتحت في زنجبار أول قنصلية أمريكية ؛ وكان التجار الأمريكيون يشترون العاج والكروبال ؛ وجمرد الحيوانات المدبوغة التي

كانت تصل من الداخل ، ويبادلون تلك السلع بالمنتجات القطنية الأمريكية والمعدات الحربية ، وقد أرسل السيد سعيد أول بعثة تجارية إلى نيويورك في عام ١٤٨٠ برئاسة أحمد بن نهمان .

وفي عام ١٨٤١ افتتحت بريطانيا قنصاية لها في زنجبار ، وكان الكولونيل همرتون ، من القوات الهندية ، هو أول قنصل بريطاني .

وفي عام ١٨٤٤ افتتحت قنصاية فرنسية ، كما عين في زنجبار قنصل للبرتغال ، وإيطاليا ، وألمانيا والنمسا والمجر .

وقد حظيت الزراعة باهتمام شديد من السيد سعيد ، ويذكر له أهالي زنجبار دوره في زراعة القرنفل ، التي يعتمد عليها أساساً رنخاء الجزيرة .

ورغم أن شجرة القرنفل أدخلت إلى الجزيرة في بداية القرن التاسع عشر ، فقد كان نفوذ السيد سعيد وراء زراعتها بطريقة منظمة وعلى نطاق واسع ، وكان الكثيرون في ذلك الوقت يعتقدون أن السيد سعيد ارتكب خطأ بتشجيع إدخال زراعة القرنفل إلى زنجبار ، وأن سياسته ستؤدي إلى دمار كل من زنجبار وبيدها . ولكن السيد سعيد الذي كان يتسم بالإصرار في مواقفه لم يستمع إلى تلك الآراء المتشائمة واستمر في خططه الشاملة لزراعة أشجار القرنفل في زنجبار وبيدها .

ويقال بأنه أصدر قراراً يقضى بزراعة ثلاثة أشجار قرنفل مقابل كل شجرة جوز هند ، وأنه قرر مصادرة المزارع التي لم تكن تمثل للملك القرار ، وعند وقت وفاته كان القرنفل قد أصبح ثالث أهم سلعة للتصدير في زنجبار ، بينما في الوقت الحاضر تنتج زنجبار وبيدها تسعة أعشار الإنتاج العالمي من القرنفل ، وقد برهن ذلك على أن السيد سعيد كان محققاً تماماً في تشجيعه زراعة القرنفل

ولذلك سرعان ما ثبتت عمان وكذلك سيبقي العمانيون العرب .

وسبقني السيد سعيد بصفة خاصة ، أثراً خالداً في تاريخ زنجبار ٥
 وبعد وفاة السيد سعيد تولى الحكم لابنه السيد ماجد من عام ١٨٥٦
 إلى عام ١٨٧٠ م ثم خلفه السيد برغش من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٨٨ م ٥
 وفي أثناء عهد السيد برغش هب على زنجبار إعصار رهيب دمر أشجار
 القرنفل ، فصمم السيد برغش ، بإرادته القوية ، على استعادة حالة
 الرخاء السابقة ؛ بزراعة القرنفل ، وعلى إدخال بعض التحسينات في الحياة
 العامة للسكان ، فأنشأ خط أنابيب للمياه من نبع شيم شيم إلى المدينة ،
 مما وفر مياه الشرب النقية للاهالي ٥

معباسة وقلعة يسوع

تعتبر معباسة الآن مدينة مزدهرة ، وقد اتسعت تدريجياً منذ بدأت شعوب الشرق في الملاحة التجارية بالاستعانة بالرياح الموسمية . ولم تقتصر فائدة ميناء كيانديني على كينيا وحدها ، وإنما استفادت منه أيضاً أوغندا ، وتنزانيا اللتان استخدمتاها من أجل السلع المستوردة لموشي وأروشا اللتين تعتبران أقرب إلى معباسة منهما إلى ميناء تانجا التنزاني . ومعباسة جزيرة ترتبط بالبر عن طريق جسر ماكوبا كوزواي .

وقد لعبت هذه المدينة دوراً هاماً في تاريخ الزوار الأول لشرق إفريقيا ، وخاصة الفرس والبرتغاليون ثم العرب الذين احتفظوا بساحل طوله عشرة أميال من كينيا ، وبميناء كيلينديني كامتداد للأراضي التابعة لنجبار حتى السنوات الأولى من ستينات القرن العشرين عندما استقلت كينيا .

وقد أضافت قلعة يسوع فصلاً جديداً إلى التاريخ الطويل لمعباسة . وقد أنشأها البرتغاليون في نهاية القرن السادس عشر ، كخط دفاع مجهزة ، للدفاع من مدخل ميناء معباسة ، ولتأمين مركزهم على الساحل الشرقي لإفريقية ، وكان ظهور السفن التركية بقيادة علي بك في المحيط الهندي ، وثورات معباسة ضد البرتغاليين سبباً في رفضهم لأن يبقى أفضل موانئ الساحل قاعدة لأعدائهم .

وكان محمد يوسف حسن الذي عينه البرتغاليون سلطاناً على معباسة بعد اعتناقه المسيحية وذهابه إلى جوا للدراسة - قد انقلب على سادته في ١٦ أغسطس ١٦٣١ ، عندما دخل القلعة مع مجموعة من أنصاره .

وقتل قائدهما بيتر و ابتاء دى جامبوا . وأصدر أوامره من القلعة لآتباعه بإحراق منازل البرتغاليين في المدينة .

وكان محمد يوسف حسن قد سمي نفسه بعد اعتناقه المسيحية دوم جيروميرو شينجوليا ، ولما كان يعلم أن البرتغاليون سوف يرسلون تعزيزات إلى ممباسة ، فإنه هرب بعد عام وامتن القرصنة . وقام الجنود البرتغاليين بقيادة الكابتن بيتر و رود ريجز بوتاو بإعادة احتلال القلعة ونجديدها .

وخلال ثلاث سنوات من ١٣ مارس ١٦٩٦ حتى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨ أصححت القلعة هدفاً لهجوم العمانيين العرب . ونتيجة لذلك دمرت بعض أجزائها ،

وفي عام ١٧٤٤ حات أسرة الوسعيد محل البعارة في عمان ، وعندما علم حاكم ممباسة محمد بن عثمان المزروعى بالتغيرات السياسية في عمان ، أعلن استقلال ممباسة . وبعدها بخمس سنوات قتل داخل القلعة بيد أشخاص قتل أنهم أرسلوا من عمان . واستطاع أخوه الهرب ، ثم العودة بمساعدة ضابط إنجليزي ، وأعلن نفسه حاكماً .

وعقب هذا النجاح ، حكم المزروعى ممباسة لفترة نخلت نسبياً من المتاعب ، حتى بدأ السيد سعيد بن سلطان الكبير يحول اهتمامه إلى ممتلكاته في إفريقيا .

لكن المزاريع - الذين تمسكوا بالاحتفاظ باستقلالهم وضعوا أنفسهم تحت الحماية البريطانية . ووقعت اتفاقية الحماية داخل القلعة في ٩ فبراير ١٨٢٤ . وفي ٢٥ يولية ١٨٢٦ سحبت بريطانيا نمثلها ، وفي يوم ٧ يناير ١٨٢٨ احتل السيد سعيد القلعة . وعين ناصر بن سلمان حاكماً وممثلاً له . ولكنه اضطر في نهاية العام أن يستسلم للمزروعى الذى حاصر القلعة ومنع عنها الطعام ، وبعد ذلك تمكن من قتله . لكن السلطان استعاد القلعة

بدون قتال في فبراير ١٨٣٧ ، واستخدمها كثكنات لجنوده حتى عام ١٨٩٥ . وعين السلطان ، محمد بن عبد الله بكشويني قائداً لقواته . وفي يناير ١٨٧٠ تمرد بكشويني (وهو أصلاً من حضر موت) ، وفي ١٨ يناير قامت سفينتان بريطانيتان بقصف القلعة بالصواريخ والقذائف وألحقت بها أضراراً جسيمة .

وفي أول يوليو ١٨١٥ - وبعد أن أصبحت كينيا محمية بريطانية - تحولت القلعة إلى سجن لمنطقة الساحل ، وأعيد تخطيطها لتتلاءم مع مهمتها الجديدة . وفي ٢٤ أكتوبر ١٩٥٨ حولت قلعة يسوع إلى حديقة عامة ، وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠ حولت القلعة إلى متحف .

ومن الجدير بالذكر أن الرجل الذي عين فيما بعد قائداً لقلعة يسوع ، كان قد ولد بها ، وهو محمد بن عبد الله بن مبارك بكشويني . وكان والده عبد الله بكشويني قد هاجر إليها من حضر موت وعين قائداً للقلعة في عهد السيد سعيد ، وبعد تعيينه أخلص في خدمة مصالح السلطان في الفترة الأولى ، ولكنه عاد فتمرد على السلطان ، مما أدى إلى عزله وأمره وإرساله إلى زنجبار مع عائلته . ثم أبعده إلى المكلا . ومن هناك ذهب إلى مدغشقر حيث تزوج من السلطانة بيسيثا بيبرا - قوم ، التي أنجبت له سبعة أبناء . وفي عام ١٨٨٨ عاد إلى زنجبار حيث بقي هناك حتى وفاته عام ١٨٩٤ .

وهناك جزيرتان أخريان انضمتا إلى مملكة ضد سيادة سلاطين عمان ، وهما لامه وباتي . وسوف نناقش أمر هاتين الجزيرتين على حدة ،

لامو وباني

تقع جزيرة لامو وباني على الناحية الشرقية من ساحل كينيا ، واطالما تقاوتت لامو ، وهي الأكبر حجما ، مع بائي ، وهي الأقوى ، وقد نشبت معارك عديدة بين الجزيرتين ، وكان حاكم بائي يدعى «واناتامو» وقد قرر أن يشن هجوما على لامو للحصول على الأسلحة التي تخلفها البرتغاليون ، وكانت مدفوعة في لامو ، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه ، لأن قواربه قد غرقت قبل وصولها إلى شواطئ لامو .

وقد استولى حاكم بائي على لامو في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، ولكنه لم يلق إلا سحق شعب لامو ، وقد قرر أحد سلاطين بائي ، ويدعى «بوانا فومو» بناء قلعة على البحر في لامو لحماية البلاد ، ولكنه مات قبل أن يكتمل الطابق الأول منها ، ونشأت بعد وفاته مشكلة اختيار خليفته من بين أولاده الخمسين .

واستغل حاكم ممباسا المزروعى الفرصة فجاء إلى لامو ليعمل على اختيار أحد أزواج بنات السلطان الميت لكي يتولى الحكم ، فانزعج شعب لامو من هذا التدخل ، وخافوا من التعاون مع شعب بائي ، لمقاومة هذا التدخل ، ورضوا ، وهم كارهون ، بتسليم الجزيرة لهم إلى المزروعى ، مستهدين إثارة شعب بائي ليثور ضد أصدقائه المزاريع ، فتنشب الحرب بين بائي وممباسا ، ونجح شعب لامو في ذلك ، غير أن الشعب في بائي عقد اتفاقا مع المزروعى ، يقضى بأن يتظاهر المزروعى بأنه على خلاف مع بائي فيحاولون التقرب من شعب لامو ، وبهذه الطريقة يمكنهم أن يضعوا

(م ٦ - عمان وشرق أفريقيا)

أيديهم على قلاعها ، ويحضرون قواتهم إليها ، ويدفعون أصدقاءهم في بائي إلى مهاجمة لامو .

وكانت فرصة ذهبية لرئيس قبائل المزاريع عندما دعاه سكان لامو لمساعدتهم ، وفي عام ١٨١٣ توجه إلى لامو ، واستطاع إقناع أهلها بضرورة استكمال بناء القلعة التي كان السلطان فومومادى قد بدأ في بنائها ، استعدادا للهجوم على بائي .

غير أن واحداً من شخصيات لامو ، من كبار السن ، لاحظ أن شيئاً ما يجرى بين رئيس المزاريع وبين ملك بائي ، فوضع هذا الرجل خطة معينة يستكشف بها حقيقة ما يحدث ، وبعث بأحد الصيادين ، يحمل رسالة إلى رئيس المزاريع ، زعم أنها من ملك بائي ، يسأله فيها عن رأيه فيما يتعلق بالخطة التي اتفقوا عليها .

ووقع رئيس المزاريع في الفخ ، وكتب الرد على الرسالة ، وسلمه إلى الصياد ، الذي عاد به في وقت متأخر من الليل .

وقد تضمن الرد معلومات عن القلعة ، وأنه سوف يحدد موعد الهجوم بمجرد أن تستكمل القلعة بنائها .

وفي صباح اليوم التالي ذهب الرجل ، وهو من كبار رجال لامو ، إلى موقع البناء ، وقدم تحيته إلى رئيس المزاريع ، ثم بعد هنيئة أطلعه - في أدب - على الخطاب ، فهاج المزروعى ، لأن الخطاب أظهر له شباؤه ، وهرع إلى الشاطئ نحو قاربه ، وفي أعقابه رجال لامو ، يريدون قتله .

ولكن الرجل أقنعهم بضرورة المحافظة عليه وعدم إصابته بسوء ظالم أنه ضيف عليهم ، وعاد المزروعى إلى بائي ، وأبلغ ملكها بما حدث .

فجرى بسرعة إعداد مجموعات حرب من جنود المزاريع ومن جميع قوات بائي .

وصمم شعب لامو على مواجهة الأعداء ، ووقعت بين الفريقين معركة في شمال شرق لامو ، وكان القتال بالغ العنف ، وانتصر شعب لامو وتغلب على أعدائه ، وأما الذين هربوا فقد عادوا إلى بائي .

وقد كانت هزيمة المزاريع شوئماً عليهم في أنحاء الساحل الشمالى ، ففي خلال السنوات القليلة اللاحقة خسروا سيطرتهم على ممباسا ، وقد كانت لهم معقلاً .

وبعد هزيمة المزاريع في شيلا جذبت لامو انتباه سلطان مسقط ، الذى طالما ساعده تمرد المزاريع في ممباسا .

فقام بإرسال قوة من جيشه وإرسال حاكم من قبيله ليتولى حراسة قلعة لامو ، وقد أتاح ذلك للفرار الفرصة لتدفق التجار العرب الذين شعروا بأن الاستقرار السيامى سوف يعزز من فرص الرخاء .

وقد جلب أولئك التجار معهم رموس أمواهم وخبراتهم التجارية فجعلوا من مدينة لامو لعبة للتجارة الدولية ، وبدأت السفن العمانية الكبيرة والفارسية تتدفق على الميناء في فصل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية لتقوم بنقل السلع بأنواعها الأخرى ، وخلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، أصبحت لامو أهم مدن ساحل شرقى إفريقيا بعد ممباسا .

وفي أعقاب انتهاء القرن التاسع عشر ، عندما أدى التسابق الأوروبى على إفريقيا ، إلى تقسيم ممتلكات سلطان زنجبار ، وإنشاء بحمية بريطانية في شرقى إفريقيا ، فقد ظهر عدد من المغامرين البريطانيين في المنطقة .

وهذا ما كانت نتيجة : ذلك ، تدهور لامو ، وأصبح رعاؤها جزءاً من الماضى .

٢ - بائي :

بائي جزيرة أخرى في أرخبيل لامر استوطنها العرب العمانيون ، ويعتقد أن بائي قد أنشأها المهاجرون من عمان في القرن الثامن عشر ، ثم قامت حائلة النهاني بتطويرها وقد جاءت من عمان عام ١٢٠٤ ، وقيل أن بائي كانت من الأقطار القوية في القرن الرابع عشر ، وسيطرت على معظم المدن الساحلية في شرقي إفريقيا ، غير أن آخر الكشوف الأثرية ، تشكلت في صححة ما سبق أن ورد ذكره عن هذه الجزيرة . وتشير تلك الكشوف إلى أن مدينة بائي قد تأسست في القرن الرابع عشر لكنها لم تتطور إلى دولة قوية تنعم بالثراء إلا في القرن السادس عشر .

وفي القرن الثامن عشر عدت بائي دولة قوية ومتقدمة جدا في مجال الفنون الجميلة ، وسمى هذا العصر بالعصر الذهبي لبائي .

ففي ذلك الوقت بالذات كان يمكن رؤية المنازل الأنيقة البناء ، وأصناف الجواهرات والآلات الموسيقية المصنوعة محليا والتي كانت تسمى «سيوا» والمطعمة بالفضة ، ونسخ القرآن المخطوطة باليد ، ودواوين الشعر المؤثرة ، ومعظمها من نظم شاعرات ، وقد تدهورت حضارة بائي في أواخر القرن الثامن عشر نتيجة للنزاع المستمر مع الجزر المجاورة لها .

٣ - سيو :

سيو مدينة تقع وسط جزيرة بائي ، ولا يعرف بالتحديد تاريخ إنشائها لعدم القيام بعمليات مسح أثرية شاملة بها ، ومع ذلك يعتقد أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الثالث عشر ، وكانت تعتبر أكبر مدن الجزيرة حوالي عام ١٦٠٠ .

وقد وقعت معركة حنيقة في سيو في القرن التاسع عشر ، والمعلومة الوحيدة عن تلك المعركة ما ورد في مخطوط بعنوان «المغامرات الحربية

للأمير حمد ، وهو ما لم ينشر . وقد ذكر كريسي ، الكاستر ، وايزموند
مارتا نر في كتابهما « البحث في الماضي » ، « أنه في عام ١٨٤٣ قرر شيخ
باني الحديد ، وبوانا ماتاكا ، وشيخ سيو ، الخروج عن سيادة السيد سعيد
سلطان عمان وزنجبار . فأرسل السيد سعيد جيشاً من ألفي رجل من العرب
ومن البلوش ، وبعض المقاتلين من لامو ، وأسندت قيادته إلى القائد
المشهور السيد حمد بن أحمد البوسعيدى ، المعروف بالأمير حمد ، الذى
كان من قبل والياً على بندر عباس (فى فارس) عام ١٨٢٤ ، وقد حقق
ذلك القائد انتصارات فى معاركه ضد باني وبيمبا ومباسة . ولكن النصر
لم يحالفه فى تلك المعركة . فقد نزل فى فازا فى أوائل يناير ١٨٤٤ ، وبينما
كان يتحرك فى اتجاه سيو فى السادس من يناير ، وقع رجاله فى كين
وأرغموا على التقهقر إلى فازا . وبعد ثلاثة أسابيع من الأعمال غير الحاسمة
أبحر بعيداً عن سيو وأمر بإقامة قلعة فى سيو يحرسها مائة من الجنود البلوش
العمانيين .

« وفى ديسمبر ١٨٤٤ تم حشد تسعمائة رجل فى مسقط لمقاتلة سيو ،
وأحضروا إلى زنجبار حيث تم تعزيزهم بمزيد من المقاتلين . ووصلوا مرة
أخرى إلى فازا فى ٤ يناير ١٨٤٥ . وعسكر السيد سعيد وقائد جيشه
الأمير حمد خارج فازا فى مكان يسمى كيشوكا فى . وفى ٦ يناير تقدم
الأمير حمد نحو سيو ، بينما صدر إليه أمر من السيد سعيد ببناء خمسة
حصون دفاعية فى الطريق إلى سيو ، وبدلاً من أن يقوم ببنائها فإنه أنشأ
حصناً واحداً فى منتصف الطريق إلى سيو فى مكوبانى . ثم هاجم سيو وأرغم
سكانها على التقهقر وراء أسوار المدينة . لكن سكان سيو تمكنوا من منع
قوات السلطان من التقدم ، بمصنفها من مدافعهم من خلال فجوات فى السور .
وبدلاً من أن يواصل الأمير حمد القتال ، فإنه قرر العودة بتليل من
جنوده إلى مكوبانى لإحتمار تعزيزات جديدة . وكان ذلك خطأ فادحاً منه .
فقد استطاع خمسمائة مقاتل التسلل من سيو ، بعد أن سلكوا طريقاً أقصر إلى
مكوبانى .

وهناك اعترض أولئك المقاتلون الأمير حمد الذي لم يكن معه سوى ما يراوح بين ١٨ و ٢٢ رجلا معظمهم عزل من البنادق ولا يحملون إلا السيوف والخناجر . وحتى يمنع قائد قوات سيو حمادى نجوما وصول إمدادات للقائد العماني ، فإنه أمر رجاله بعدم استخدام الأسلحة النارية حتى لا تحدث صوتا ، وأما يقتلون الأمير حمد بالرمح السامة .

وبعد إطلاق ١٨ رمحاً نحوه ، استطاع أحد الرماة أن يطلق عليه رمحين متتابعين أصابه الثاني في ركبته . ثم اندفع رجلان بسيوفهما لقتل الأمير المصاب . لكن الأمير حمد استطاع تمزيقهما . وأخير تلقى الأمير عدداً آخر من الرماح السامة .

« وعندما وجد السيد سعيد أن قائد قواته قد قتل ، أنهى حصاره لسيو وانسحبت القوات وهي في حالة اضطراب بحيث تمكن جنود العدو من ذبح الكثيرين منهم ، بينما ألقى آخرون بأنفسهم في المستنقعات القاتلة . وتم دفن جثمان الأمير حمد قرب فازا وقد توفي عدد كبير من جنوده أثناء بكائهم على قائدهم الكبير . وقد قام السيد سعيد وهو في حالة صدمة ، بلم شتات بقايا جيشه وأبحر عائدا إلى زنجبار . ولم ينس بيت شفة إلى أن وصل إلى ماندا .

وبعد ذلك بوقت قصير سمع السيد سعيد أن شيخ ماتاكا قد توفي ، ومن ثم قرر التفاوض بدلا من القيام بمحاولة أخرى لأخذ سيو بالقوة . فقد اعتقد السيد سعيد ، انه مادام شيخ ماتاكا - الذي كان خصمه الرئيسي - قد مات ، فإن قيامه بشن هجوم ، سوف ينسف مكانته ، لأنه لو كسب المعركة فلن يشيد به أحد ، أما إذا خسرها فسوف يكون ذلك مشينا له . وقبل وفاة السيد سعيد شدد في نصح ابنه السيد ماجد بأن يتدبر كثيرا ما حصل في سيو .

وقد تفاوض السيد سعيد مع شيخ سيو الحدود وعسكرت قواته من

جديد في القلعة . وفي عام ١٨٦٣ أخرج الشيخ محمد ابن ماناكا قوات السلطان من قلعة سيو ، وتحالف مع أحمد سيمبا سلطان بائي . ورد السيد ماجد سلطان زنجبار على ذلك بإرسال أسطول مسلح لمهاجمة سيو . وقامت قوات السيد ماجد بإنزال قوات في بائي وفازا ، وفرضت حصارا على سيو . استمر ستة شهور . وخلال هذه الفترة كان سكان بائي قد أكلوا كل ما لديهم من طعام . وبدأوا يعيشون على عصير جوز الهند والماء . وعندما وجد الشيخ محمد أنه لا يوجد أمل في النصر وأنه مهدد هو ورجاله بالفناء جوعا طلب هدنة .

وقد وافق السيد ماجد على ذلك بشرط إعادة بناء قلعة سيو لتصبح مقرا للوالي . وقد قبل الشيخ محمد الشرط وأعيد بناء القلعة .

وقد وقع خلاف جديد بين السيد ماجد وبين الشيخ محمد عندما قام الأخير بإنشاء حظيرة لبناء سفينة شراعية من طراز الداو في منطقة مواجهة لمقر الوالي واستاء الوالي جدا من ذلك التصرف ، فما كان من الشيخ محمد إلا أنه أمر أتباعه بهدم القلعة . ورغم ما حدث فإن غالبية السكان طلبوا من الشيخ محمد تقديم اعتذار للسيد ماجد . ونزولا على طلبهم بعث الشيخ محمد بالاعتذار وأعيد بناء القلعة ، غير أن السيد ماجد سرعان ما انتقم من الشيخ المذكور ، فعندما توجه الشيخ محمد مع زعماء سيو إلى زنجبار لتقديم فروض الولاة للسلطان . أمر السيد ماجد باعتقاله والزجج به في قلعة يسوع في ممباسا مع أوامر بوضع القيود في يديه وبألا يفرج عنه إلا بأمر منه . ولكن ذلك الأمر لم يصدر وأمضى الشيخ محمد بقية حياته في قلعة يسوع ، وفرض السيد ماجد سلطان زنجبار سلطته الكاملة على سيو في النهاية .

وفي عام ١٨٢٣ وبعد عشر سنوات من السلام أصبحت سيو أكثر مدن الجزيرة سكانا وثروة ، ونصب حاكم عربي في القلعة ، وقد نجح في إحلال السلام بين مختلف الطوائف في الجزيرة .

وكان في المدينة ستة من التجار الهنود . واحد منهم من البهرة والخمسة الآخرون من الهندوس ، وكانوا يمارسون النشاط التجاري ، وكان مزارعو سيو يمارسون نمطا غير معتاد في الزراعة ، لكنه أسلوب معروف في مسقط . ويقوم على حفر الآبار حول مشارف المدينة لرى المزارع ، وجلب الجمل لاستخدامها كحيوانات عمل في استخراج المياه بدل الثيران التي لا تقوى على هذا العمل بكفاية .

وكان التبغ (تاو) أكثر المحاصيل الزراعية قيمة ويصدر إلى معظم المدن الساحلية ، وكذلك جوز الهند والبلح ، وأنواع أخرى من الفواكه الاستوائية .

والتبغ في فترة السبعينيات - القرن التاسع عشر من أكثر المحصولات الزراعية إنتاجا في المناطق الساحلية ، وعندما فتعلت زراعته أثناء فترة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فإن سكان سيو يضطرون محصولهم إليها .

وكان البلح أهم محاصيل سيو ، وتعتبر زراعته مقصورة على سيو دون غيرها من مناطق الساحل لعدم توافر موارد كافية من مياه الري ، والبلح هو أهم محاصيل سيو .

وقد ساعد نظام الري المتبع في سيو على احتفاظ جلود النخيل بالرطوبة الدائمة ، وكانت هناك مئات من أشجار النخيل تنتج نوعاً طلي الخوذة من البلح .

ولما ألقى الرق انهار الاقتصاد الزراعي ، فانهار بذلك رخاء سيو ، فلما اضطرت الناس إلى مغادرة المدينة للبحث عن عمل في ممباسة .

وكل ما بقي الآن من هذه المدينة في جزيرة بانى هو القلعة القديمة التي أنشأها السيد سعيد بن سلطان ، ولا يبقى من مئات أشجار النخيل سوى واحدة أو اثنتين .

حملة مكافحة الرق

تعتبر مناقشة تجارة الرقيق من المسائل بالغة الحساسية ، وإنه من الصعب إقناع أبناء الدين تأثروا فيها بشكل مباشر بتقبل واقع تلك الفترة التي ازدهرت فيها تجارة الرقيق فالذين نشطت حملات مكافحة الرق من أجلهم لم يتمكنوا من تفهم أن الدين قاموا بهذه الحملات لم يكن هدفهم إنسانياً بحتاً ، بل أن الدوافع السياسية هي التي كانت تحركهم .

وأولئك نجحت هذه الدوافع فحققت للأوروبيين أهدافهم السياسية في شرقي إفريقيا ، وزرعت الكراهية العنصرية والدينية في عقول الناس إلى الحد الذي يجعل شخصاً يكره شخصاً آخر مجرد أن جلده يحمل هذا اللون أو ذلك ، أو أنه يعتقد هذا الدين أو ذلك .

وفي الحقيقة ، فإن تجارة الرق كانت عملاً بشعاً ، شارك فيها غالبية الذين زاروا إفريقيا - إن لم يكونوا كلهم - وتورط فيها كثير من الناس بما في ذلك الإفريقيون أنفسهم ، بدءاً من إمبراطورية الزنج و نهايةً بوصول العرب ، وحتى بوصول الدول الأوروبية إلى شرقي إفريقيا ، ولقد كان هناك دافع مشترك في تلك الأيام وهو الحصول على قوة عاملة رخيصة ، ومع ذلك فقد كانت تلك التجارة سبباً في جبين الحضارة نفسها ، أكثر مما كانت شيئاً مشيناً للدين زاولوها منتهكين المبادئ الإنسانية ،

ورغم أن البرتغاليين والفرنسيين والأسبان قد شاركوا في تجارة الرقيق ، فإن العرب هم الذين انصب عليهم الانتقادات . ولقد ظهر العرب على مسرح هذه التجارة في القرن التاسع عشر .

وبعد ما اتخذت بريطانيا بخطواتها المبدئية ضد تجارة الرقيق في شرقي

إفريقية، فإن ذلك حدث في عهد السيد سعيد بن سلطان . ففي عام ١٨٢٢م وقع السيد سعيد إتفاقية مع بريطانيا تعهد فيها بتحريم بيع الرقيق إلى أي دولة مسيحية ، كما نصت الإتفاقية على وجوب إطلاق سراح جميع العبيد الذين يملكهم الرعايا البريطانيون المقيمين في المناطق الخاضعة للسيد سعيد سلطان زنجبار ، وقد حاول الرعايا البريطانيون والهنود أصحاب الرقيق أن يلتصقوا من السلطان لإغفائهم من هذا الشرط لكنهم لم يفلحوا في مسعاهم . وقد نتج عن إلغاء هذا الوضع السائد انهيار الاقتصاد الزراعي . وحدث ما كان متوقفاً . حيث تحول العبيد الذين ترحلوا إلى السرقة لملء بطونهم عندما عجزوا عن العثور على ما يسد رمقتهم ، وقد كان المفهوم في ذلك الوقت أن قانون تحريم الرقيق إنما يقتصر على رعايا بريطانيا المقيمين في ممتلكات السيد سعيد وحدهم ، وعندما رفض رعايا السيد سعيد تطبيق هذه الإجراءات على أنفسهم ، فقد كان على بريطانيا أن تتدخل لتفرض أوامرها على رعاياها ، وإن الوضع بالنسبة للرقيق في البلاد الإسلامية كان مختلفاً عنه في أمريكا الشمالية ، ففي الدول الإسلامية كان للعبيد ساعات عمل محدودة ، وكان يسمح لهم بالعمل لحسابهم الخاص ، يومين على الأقل كل أسبوع ، بالإضافة إلى منحهم فترات راحة .

وكان هناك تناقض بين المسلمين في منح الحرية لعبيدهم ، وكان مما يهخر به العبد أن يعلن أنه مملوك لشخص مميز . ولكى نفهم بشاعة الرق ، ينبغي معرفة الفرق بين تجارة العبيد وبين امتلاكهم ، فالأولى تتنافى تماماً مع الأحاسيس الإنسانية . ولقد كان من عادة تجار الرقيق أن يتجولوا في غابات إفريقية لاصطياد العبيد ، وكانوا يقومون — بمساعدة بعض الإفريقيين — بنزع الضحايا من أكواخهم وإرسالهم إلى الساحل تحت أقصى الظروف . وكثيرون منهم كانوا يعوتون قبل وصولهم إلى الجهة المتجهين إليها ، بسبب الجوع والعطش والتغذيب . وقد يتساءل المرء ! ألم يكن تجار العبيد أنفسهم يقاسون من نفس المشكلات ، وهم يقودون قوافل العبيد من الداخل إلى الشواطئ ؟ ، أننا إذا

أخذنا في اعتبارنا المطمح الرئيسي لتاجر الرق في تحقيق أكبر مكسب من بضاعته ، فإننا نجد من المنطقي أن يكون مهتماً بالوصول بعبئده إلى السوق أحياء وفي صحة جيدة ، حتى يحصل مقابلهم على أفضل سعر . فلقد كان الرقيق رأس مال التاجر ، وإذا علبه حتى الموت فإنه يخسر رأس ماله .

وعندما بدأت حملة مكافحة الرقيق فإنها لم تبدأ كمسألة إنسانية ، ولكنها بدأت بدوافع سياسية . ولقد حرص الكتاب الذين كتبوا عن تجارة العبيد وقمعها ، على أن يغرّسوا بذور الكراهية . حقول قرائهم ، وبذلك أفرزت تلك البذور حصاها المقيت ، وظلت تلك الكراهية سائدة منذ أن كانت تجارة الرق في أوج ازدهارها حتى يومنا هذا ، حيث أصبحت مجرد قصة من قصص الماضي .

وفي مجال المقارنة ، فإن التجار الأوربيين كانوا أكثر تجرداً من الإنسانية ، من نظرائهم العرب . فلم يكن العرب يبيعون عبئدهم في الأسواق مع أثامهم عندما كانوا يغادرون مدينة ما إلى أخرى مثلما كان يفعل الأوربيون .

وقد كتب الرحالة الأوربي ريتشارد في عام ١٨٨٠ بعد زيارته لزنجان يقول ، بأن العبيد هنا لا يعانون من الجوع أو التعذيب أو الحرمان ، لأنه لو بلغت السلطان أنباء عن سوء معاملة السادة لعبئدهم فإنه يعطى لهؤلاء العبيد حريتهم ويحميهم من انتقام ساداتهم السابقين ، ومضى ريتشارد يشرح أوضاع العبيد كما شاهدها ، مؤكداً بأنها أفضل حالاً من ألوف العمال في بلاده ،

ويرجع إلى السيد سعيد فضل كبير في مساعدة بريطانيا مساعدة كبيرة في محاولاتها تحريم تجارة الرقيق ، رغم أن المعاهدات التي وقعها معها لم تكن موضع ترحيب من شعبه ، وفضلاً عن ذلك فإنه كان بشكل خساسة

اقتصادية ومالية طائلة كانت تعود عليه من الرسوم المتبردة في ممتلكاته على العبيد الزارعين ، وقد كانت هذه الرسوم مصدراً رئيسياً للدخل .

وبعد وفاة السيد سعيد استقبل ابنه السيد برغش كثيراً من المبعوثين البريطانيين الذين جاءوا كدعاة تشديد للحملة ضد الرق ، ومن بين هؤلاء السير بارنل فرير الذي نجح بعد عدة محاولات في شراء عدد من العبيد ، ومنحهم الحرية ، وبعد ذلك حصل على قطعة أرض في ممباسة ، وأقام عليها مستعمرة يعمل فيها العبيد الذي حرروا من ساداتهم ، وسمى هسلدا المكان باسم (فرير تاون) أي مدينة فرير ، وما زال يحمل نفس الاسم حتى اليوم

وكان الدكتور كيرك يمثل فرير ، ثم أصبح بعد ذلك يحمل لقب سير ، وهو السير جود كيرك القنصل البريطاني في زنجبار ، وقد وصل به الأمر إلى أنه هدد السيد برغش باستخدام القوة إذا لم يوافق على توقيع معاهدة أشد صرامة ، وقد وقع السيد برغش على تلك المعاهدة عام ١٨٧٣ . وأغلق السلطان سوق العبيد في زنجبار .

وفي سبتمبر ١٨٧٩ وقع السيد خليفة — الذي خلف السيد برغش — اتفاقاً مع بريطانيا ، يقضى بأن كل الذين يدخلون أراضي السلطان ابتداء من أول نوفمبر من ذلك العام يعتبرون أحراراً ، كما أن الأطفال الذين يولدون بعد أول يناير ١٨٩٠ ، يعتبرون أحراراً أيضاً .

واتخذت الخطوة النهائية نحو إلغاء الرق في زنجبار وبيمبا عام ١٨٩٧ ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن هناك اندفاع من جانب العبيد لتبيل حريتهم ، ففي أواخر يونيو من ذلك العام ، أعلن عن حصول ١٢٠ شخصاً فقط على حريتهم في زنجبار وبيمبا . فقد كان كثير من العبيد سعداء وراضون عن أوضاعهم لدى ساداتهم . وهنا يتضح الفرق بين الإنجاز في الرقيق وبين امتلاك الرقيق ، فلقد كان الجانب البشع في الرق مرتبط بعملية نقل العبيد .

من الداخل إلى الشاطئ ، وعبر الرحلة إلى زنجبار ، لكن حسن معاملة الرقيق لم تكن تبدأ إلا بعد وصولهم إلى الجهة النهائية . وكثيرون من العرب كانوا يتصفون بالرحمة ؛ ولذلك عادة ما كان العبد في زنجبار أكثر أماناً وراحة مما كان في قرينته بالداخل . وكان أصحاب الرقيق يهونهم بعض الأراضي لاستصلاحها وزراعتها لأنفسهم ، أما الذين عملوا كخدم في البيوت فقد كانوا مرتبطين بساتيمهم ، وكانوا يرفضون منحهم حريتهم . وتدرجياً بدأ العبيد يطالبون بحريتهم ، إلى أن اختفى الرق تماماً .

الإسلام والمسيحية في شرق أفريقيا

وأينما في الفصل السابق كيف أقام العرب والفرس مستوطنات في شرق أفريقيا ، من مقدشيو شمالاً إلى كيبوا في الجنوب . ومن الجدير بالذكر أن أولئك المهاجرين لم يذهبوا إلى شرق أفريقيا كمبشرين بالإسلام هدفهم هو تحويل الإفريقيين إلى الدين الإسلامي . فقد كان الدافع هو العثور على ملجأ آمن - من ناحية - والتجارة من ناحية أخرى . وكان اعتناق السكان الوطنيين للدين الإسلامي نتيجة للعلاقة الوثيقة التي نشأت بينهم وبين ضيوفهم . كذلك انتشر الإسلام في أفريقيا بحكم الزواج والامتزاج بين الطرفين ، والذي بدأ منذ قرون واستمر في القرن الثامن عشر مع الاستيطان الدائم للمسلمين القادمين من الجزيرة العربية وشيراز .

ويمكن القول أن دخول الإسلام قد مهدت له تلك الروابط الأخوية بين الشيرازيين والعرب من ناحية ، وبين سكان شرق أفريقيا من ناحية أخرى ، وهي روابط إجتماعية وثقافية قامت منذ وقت طويل

ومن جانب آخر فإن المسيحية دخلت شرق أفريقيا من خلال فتح هذه المناطق على يد الأوربيين ، ويرتبط نشاط البعثات التبشيرية المسيحية بمختلف صورها بالقصة الكاملة لفتح أفريقيا الاستوائية وتطورها خلال القرن التاسع عشر ، كما أن جزءاً كبيراً من الكشوف الأولى للمناطق الداخلية من أفريقيا قد تم خلال القرن التاسع عشر على يد مبشرين مسيحيين ، وإلى جهودهم يعود الفضل في وقف تجارة الرقيق البشعة .

ويدون الحديث عن أعمال المسيحيين يصبح الحديث عن تاريخ ساحل شرق أفريقيا غير كامل . وقد سهل سلطان زنجبار - رغم أنه مسلم -

عمل تلك البعثات المسيحية ، وهذه هي الديمقراطية الكاملة في الإسلام ، فالإسلام لا يتدخل في شؤون أية ديانة أخرى ، بل العكس على فهو يحترم الديانات الأخرى ، والقرآن يقول : لا إكراه في الدين . ومن هذا المنطلق عرض السلطان كافة المساعدات والتسهيلات للبعثات المسيحية عندما اتصلت به ، وبصرف النظر عما إذا كان مصعبا في ذلك أم لا ، فإنه قد تصرف بحسن نية وبالتزام كامل بمبادئ الإسلام .

وبعثات التبشير الرئيسية التي عرفت بنشاطها الزائد في شرقي إفريقيا هي :

(١) جمعية التبشير الكنسية : وهي جمعية توفد رجالا إلى هذه المناطق ، وتأسست عام ١٧٩٩ للعمل في « إفريقيا والشرق » . وفي عام ١٨٤٠ أرسل الدكتور كرامبف إلى الحبشة في بعثة تقصي الحقائق ولمعرفة ما إذا من الممكن التبشير بالمسيحية في هذه البلاد ، وقد أقنعت مشاهداته بعدم نجاح التبشير هناك في ذلك الحين .

وفي عام ١٨٤٤ غادر الحبشة وذهب إلى زنجبار حيث أكرم القنصل البريطاني همرتون وقادته ، وقدمه للسيد سعيد ، وقد شرح الدكتور كرامبف للسلطان ، أنه يرغب في الاستيطان في ممباسا من أجل تحويل السكان إلى المسيحية ، فسمح له السيد سعيد بالقيام بذلك ، وسلمة رسالة توصية للحاكم العربي للساحل .

وأبحر الدكتور كرامبف إلى ممباسا في مايو سنة ١٨٤٤ ، وبدأ عمله بين قبائل نيبكا ، ولم تكن البيئة المحلية مهيأة له ولعائلته تماما ، فخلال بضعة شهور من إقامته هناك فقد زوجته وطفله ، بينما أصيب هو بمرض خطير ، ولما ماتت زوجته حضر حاكم ممباسا وغيره من المسلمين السواحليين جنازتها إكراما له .

ولم تثبط تلك الأحداث من همته : واستمر في عمله . ولاحق به عام ١٨٤٦ صديقه القس جون ريجان ، وأقاما مقرا للبعثة في قرية راباي ، وما زالت كنيسة راباي تستخدم حتى اليوم .

٢ - البعثة الجامعية لوسط إفريقية : وقد تأسست هذه البعثة عام ١٨٥٦ نتيجة لنداء وجهه دكتور ليفنيجستون إلى جاءه حتى أوكتوبرد وكامبريدج ، وفي البداية أوصيت البعثة بالبده في عمل نشط عام ١٨٦١ في إقليم نهر شيرى ، بقيادة الأسقف ماكزى ، ولم يكن اختيار المكان مناسباً بسبب الطبيعة القاسية هناك ، حيث مات الأسقف ماكزى ومعظم مساعديه في العام الأول من بدء نشاطهم ، وقرر خلفه الأسقف توزر الذى وصل إلى نهر شيرى عام ١٨٦٣ ، وقف العمل هناك لفترة ، ونقل المقر إلى زنجبار بعد أن تأكد من أن مركز زنجبار المتوسط على الساحل الشرى يمكن أن يجعل منها نقطة للانطلاق لمزيد من العمل فى الداخل .

ووصل الأسقف توزر بصحبة الدكتور ستر إلى زنجبار فى أغسطس ١٨٦٤ ، وبضعة أيام قضياها ضيفين على القنصل البريطانى ، اتفق مع السلطان السيد ماجد على تزويد البعثة بمبنى كبير مواجه للبحر فى شانجانى فى وسط المدينة .

وزود السلطان الأسقف توزر بخمسة من الصبية الذين كانوا عبيدا وحرروا ، ليساعدوه فى عمله ، وبعولاء الصبية وغيرهم ممن انضموا إليه بعد ذلك بدأ توزر عمله بتعليمهم بحيث أصبحوا فيما بعد مدرسين وقسا ،

وفى عام ١٨٦٥ اشترى الأسقف توزر مقاطعة فى كيونجانى ، على مسافة لا تبعد كثيراً عن مدينة زنجبار ، وبعد ذلك بعدة سنوات اشترى قطعة أخرى من الأرض فى مبونى ، على مسافة أربعة أميال إلى الجنوب من المدينة واستخدمها لإقامة الوافدين الجدد إلى البعثة ، ولم يمض وقت (م ٧ - عمان وشرقى افريقية)

طويل حتى أنشئت قرية في هذا الموقع للعبيد الذين تم تحريرهم ، ومن هذا المكان انتشرت المسيحية إلى الداخل حتى وسط إفريقية .

٣ - بعثة الروح : وتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وقد أسسها دكتور أماند مانيوينت ، وأستف سانت دينيس ، الذي أرسل نائبه العام إلى زنجبار عام ١٨٦٠ ، وعند وصوله إلى زنجبار زار هو ومرافقه السلطان السيد ماجاه وأبلغوه أنهم سيقومون بأعمال التمريض للمواطنين الفقراء وعلمهم وقد لقي من السيد ماجاه ترحيبا ودبا ، وأعرب لهم عن أمله في أن يكون في عملهم بركة لشعبه .

وقد أنشأت البعثات مستشفيات ، ووحدة للبحارة الأوربيين ، والآخري للإفريقيين ومدرسة أولية ، ومدرسة صناعية ، ومن هنا انتشر عملهم إلى الداخل .

٤ - بعثة الأصدقاء الصناعية - ييمبا : وكان اهتمامها منصبا عن مكافحة الرق وتجارة الرق . وسميت بهذا الاسم ، لأنها آمنت بأن أفضل طريق للتخلص من الرق هو تحويل العبيد إلى مواطنين نافعين يزاوون أعمالا مفيدة ، وكان رائد هذه البعثة هو تيودور بيرت الذي وصل إلى ييمبا عام ١٨٩٧ ، قبل صدور مرسوم إلغاء الوضع القانوني للرق ببضعة شهور .

ومن الجدير بالذكر أن المساعدة التي قدمها سلطان زنجبار للبعثات المسيحية كانت كبيرة للغاية ، ومع ذلك فقد أعطيت للإسلام في مرحلة لاحقة صورة تظهره بمظهر أعدى أعداء المصالح الأوربية في إفريقية . حتى أنهم كانوا يربطون العربي بالرق وكل أنواع الاستغلال .

زنجبار في فترة الحماية البريطانية

بدأت نقطة التحول في تاريخ زنجبار في ٤ نوفمبر ١٨٩٠ عندما وضعت هي وبمبا تحت الحماية البريطانية . وكان ذلك يعني ببساطة وضع حكومتها وإدارتها مستقبلاً في أيدي مسئولين بريطانيين ، رغم أن الجزيرتين ظننا تحت حكم السلطان . لكن السلطان لم يعد مستقلاً ، أو يتمتع بسطات واسعة ، وإنما مجرد حاكم اسمي للجزيرتين . ومن ثم سقطت تماماً في أيدي آخرين ، إمبراطورية شرقي إفريقية المتسعة والطموحة التي أراد السيد سعيد بن سلطان بناءها . وكان ذلك نتيجة للتسابق الأوربي على إفريقية ، وقد آتهم بعض الكتاب خلفاء السيد سعيد بالعجز عن إقامة حكم فعال وقوي في المناطق على الساحل الشرقي لإفريقية ، وكان ذلك سبباً في سقوط إمبراطوريتهم في أيدي الغير .

وفي عام ١٩١٣ وبعد عامين من تولي السيد خليفة بن حارب ، ألغى مكتب الوزير الأول للسلطان والتمنصل العام ، وأقيم مكتبان جديدان مكانهما للمقيم البريطانيين والسكرتير الأول . وفي نفس الوقت أنشئ مجلس محمية زنجبار برئاسة السيد خليفة ، والمقيم البريطاني نائبا للرئيس ، وعضوية ثلاثة أعضاء رسميين ، وأربعة غير رسميين لتمثيل مختلف السكان .

وفي ٥ سبتمبر ١٩٢٥ ألغى منصب المندوب السامي في زنجبار الذي يشغله حاكم محمية شرقي إفريقية ، وأصبح المقيم البريطاني مسئولاً مسئولية مباشرة ، عن المكتب . وحلت محل مجلس المحمية الذي أنشئ عام ١٩١٤ ، مجالس تنفيذية وتشريعية ، بدأت عملها في أول مارس ١٩٢٦ ، وكان يرأس المجلس التنفيذي ، المقيم البريطاني ، مع ثلاثة

أعضاء مسولين سابقين ، وستة أعضاء من غير المسؤولين . وكانت هذه أول مرة يشارك فيها شعب زنجبار حكومته في إدارة شئونه . وفي عام ١٩٤٦ زاد عدد الأعضاء غير الرسميين واحدا ، وفي عام ١٩٤٧ زاد واحدا آخر ، لتمثيل الإفريقيين .

وفي عام ١٩٥٦ جرى توسيع المجلس ، وارتفع عدد الأعضاء غير الرسميين من ٨ إلى ١٢ ، ومنهم أربعة عرب ، وأربعة إفريقيون وثلاثة هنود ، (أوروبي واحد) .

وكان هناك في الوقت نفسه تمثيل عنصرى في المجلس التشريعى ، ولكن ذلك توقف عندما صدر في عام ١٩٥٦ المرسوم الخاص بالجنسية في زنجبار . وأصبح الأعضاء غير الرسميين « أعضاء ممثلين » . كما عين في الجانب الرسم لأول مرة ثلاثة أعضاء من موظفى الحكومة من كانوا من رعايا سمو السلطان ؛ وعين في المجلس التنفيذى ثلاثة أعضاء ممثلين ، وعهد إلى كل منهم بمسئوليته لإحدى الإدارات الهامة في الحكومة ، وبذلك أصبح ممثلو الشعب يشاركون لأول مرة في إدارة شئون بلادهم . كذلك أنشئ مجلس خاص لتقديم المشورة للسلطان ، فيما يتعلق بممارسة سلطاته . ويتكون من المقيم البريطانى ، والسكرتير الأول ، والمدعى العام وما لايزيد عن ثلاثة أعضاء آخرين يعينهم السلطان .

وفي مايو ١٩٥٧ تقرر بناء على توصيات مستر كوتس (السير والتر كوتس بعد ذلك) - أن يكون شغل مقاعد ستة من الأعضاء الممثلين الاثنى عشر بالانتخاب ، وستة بالتعيين من جانب السلطان طبقا لمشورة المقيم البريطانى ، واستنادا إلى طلبات مقدمة من أفراد ، وبحيث يكون كل منهم حاصلا على تأييد مائة صوت على الأقل .

وجرى زيادة المقاعد الستة التى يشغلها أشخاص منتخبون إلى ثمانية . وفي مايو ١٩٥٩ . ومع ذلك فإن هذا التغيير لم يوضع موضع التنفيذ قبل

مؤعد الانتخابات التالية ، وفي أغسطس من نفس العام سنت الحكومة قانوناً يعطى المرأة هذا الامتياز .

ونتيجة لتوصيات سير هيلارى بلود المفوض الدستورى فى نوفمبر ١٩٦٠ عدل دستور المجلس التشريعى بحيث أصبح يضم اثنى وعشرين عضواً منتخباً وخمسة أعضاء يعينهم السلطان بناء على مشورة المقيم البريطانى ، وكان ذلك تغييراً هاماً فى التاريخ الدستورى لزنجانبار ، فقد أصبح يضم لأول مرة أغلبية من ممثلى الشعب فى المجلس التشريعى - يتمتعون بمسئوليات وزارية . ولم يعد المقيم البريطانى هو رئيس المجلس ، وحل محله رئيس منتخب من بين الأعضاء .

وأجريت ثانياً انتخابات عامة فى زنجبار فى يناير ١٩٦١ لشغل جميع المقاعد الاثنى والعشرين . ووصل هذا الإجراء إلى طريق مسدود ، وتقرر تشكيل حكومة مؤقتة تضم ممثلين عن كل حزب من الأحزاب السياسية الثلاثة ، وهى : الحزب الوطنى الزنجبارى ، والحزب الأفروشيرازى ، وحزب شعبى زنجبار وبيمبا ، مع وجود سكرتير مدنى يزاول مهام رئيس الوزراء ، ومن أجل تفادى مواجهة تغيير آخر ، زيد عدد الممثلين المنتخبين من ٢٢ عضواً إلى ٢٣ لثالث انتخابات عامة فى يونيو ١٩٦١ والتي أسفرت عن تشكيل حكومة ائتلافية ، من حزبين : الحزب الوطنى لزنجانبار ، وحزب شعبى زنجبار وبيمبا ، وفى نوفمبر ١٩٦٢ أدخل نظام الاقتراع العام لجميع الذين بلغوا سن ٢١ عاماً فما فوق .

وفى مايو ١٩٦٣ صابر المرسوم الدستورى ليحل محل مرسوم المجلس ، وحل محل المجلس التنفيذى ، مجلس وزراء يضم رئيس وزراء وعدداً من الوزراء لايزيد عن سبعة . وأنشئت جمعية وطنية لتحل محل المجلس التشريعى ، وجميع أعضائها الواحد والثلاثين منتخبون .

وفى ٢٥ برنبرو ١٩٦٣ - منحت زنجبار حكماً ذاتياً داخلياً و دستورا

جديدا بدأ سريان مفعوله في نفس اليوم ، وأعقب ذلك إجراء رابع انتخابات عامة في ٨ يوليو ١٩٦٣ ، ونتج عنها تشكيل حكومة من تحالف الحزب الوطني الزننجباري وحزب شعبي زنزيبار وبيمبا .

ونتيجة للمناقشات التي جرت بين ممثلي الحكومة والمعارضة وبين الحكومة البريطانية ، أعان يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ موعدا للاستقلال التام لزننجبار وبذلك انتهت الحماية البريطانية التي استمرت ٧٣ عاما . وتغير لقب السلطان بعد العاشر من ديسمبر ١٩٦٣ من سموه إلى جلالته .

ولم يدم هذا الاستقلال أكثر من شهر ، ففي ١١ يناير ١٩٦٤ صدرت من داخل افريقية إلى زنجبار عملية انقلاب دموي أطاحت بالحكومة الشرعية المنتخبة ، وقتل آلاف الأبرياء ، منهم كبار في السن ونساء وأطفال ، عابثهم من العرب .

الثورة في زنجبار ، وماذا ؟

تكاد جميع الثورات التي وقعت في أجزاء مختلفة من العالم أن تكون نتيجة فشل من جانب رئيس الدولة وحكومته في أن يجعل شعبه يحقق الاحتياجات الأساسية للحياة .

وبشكل أو بآخر فإن مثل هذه الدولة ربما لا تملك من المصادر والتمويلات ما يمكنها من تلبية حاجات المواطنين ، وإن القليل الذي تملكه يستخدم بفعلة رئيس الدولة وبعض من رجاله المقربين ، ومثل هذه الظروف كقابلة باشعال ثورة لها ما يبررها ، وإن ما يبرر مثل هذا النزاع من الثورات أن جماهير الشعب تتعرض للعوت جـوعاً ، بيذا رئيس الدولة ومساعدوه يتجاهلون حاجات الشعب ومشكلاته ولا يهتمون إلا بأنفسهم ومصالحهم .

وهناك أنواع من الثورات الأيديولوجية ، حيث لا تخطى الحكومة القائمة برضاء قطاع معين من الناس .

فيعمد هؤلاء الساخطون إلى تنظيم أنفسهم ، ويسعون إلى الحصول على تأييد إحدى الدول الأجنبية التي تلتقى وجهة نظرها مع نوعية التغيير المطلوب .

وفي أغلب الأحوال يقوم بهذا النوع من الثورات عناصر تسعى إلى السلطة من أجل السلطة ، لا من أجل مصلحة الشعب ورفاهيته وتقدمه . وما إن تصل تلك العناصر إلى هدفها حتى تنقلب على مواطنيها وتتحول إلى أداة لتحقيق سياسة الدولة الأجنبية التي كانت تساعدنا .

ومع ذلك فإن الثورة في زنجبار حدثت لأسباب مختلفة ، كما قد ذكرت أسباب مختلفة في تبريرها ، وأغلب ما ه المبررات أن السكان العرب كانوا

يستغلون الأفريقيين، ومن هنا اكتسبت الثورة طابعاً عنصرياً : وأن الثروة الوحيدة التي كان يملكها العرب هي الأرض ، لكن العرب لم يكونوا الفريق الوحيد، الذي يملك الأراضي ، فقد كان هناك الهنود والأفريقيون أيضاً . والأرض نفسها لم تكن تعتبر في نظر أصحابها شيئاً هاماً ، غير أن أهميتها تكمن في مزارع القرنفل وجوز الهند التي كانت تضمها ، وعلى الرغم من وجود محاصيل أخرى كالمانجو والبرتقال غير أن تلك المحاصيل لم تكن تعتبر ثروة .

وبالتالي فإن من كان يرغب في زراعة محصول يوفر له الغذاء ، فإنه يستطيع أن يفعل ذلك في أرض أى شخص - وإن كان ذلك يبدو غريباً - بدون إذن أو حتى علم صاحب الأرض . وكان المزارعون في زنجبار يعيشون فوق أرض مملوكة لغيرهم ، ويستغلونها لأنفسهم ، وإذا أراد صاحب الأرض أن يحصل على شيء من المحصول ، فإنه يدفع فيه الترتين السائد في السوق . وإذا رفض فإن المزارع يستطيع أن يذهب بمحصوله الى السوق . لكن ثوار زنجبار لم يعدوا مبررات يخدعون بها العالم ، ويغفلون بها على الحقائق السائدة في زنجبار ،

وكان الظلم الذي روجوا له هو أنه بمجرد الاطاحة بالعرب ومصادرة أراضيهم ، وإعادة توزيعها على الأفريقيين ، فإن كل فرد في البلاد سيصبح ثرياً . وعندما أخذ يتردد ذلك في أسماع الأفريقيين ، تصور كل واحد منهم أنه سيتحول الى شخص ثرى له مكانته ومركزه في المجتمع .

ومع ذلك فإن الإفريقيين لم يكونوا خائفين عن أن مثل ذلك العمل سوف يعنى الانتحار الاقتصادي للبلاد ، فليس في التنظيم الشيوعية ولا الرأسمالية ما ينص على أن تفتت الأرض الى ملكيات صغيرة ، يمكن أن تحقق فائدة اقتصادية .

ولقد جزئت الأرض في زنجبار إلى ملكيات صغيرة ، مساحة كلها منها

آكر واحاء (فدان) ، ووزعت على الورثة غير الشرعيين للعرب الذين قتلوا أو سجنوا وجدير بالذكر أن الأرض الزراعية في زنجبار مليئة بأشجار القرنفل وجوز الهند ، وهى أشجار تغل حاصلها موسميا ، ومن أجل الاعتماد عليها كملسكية اقتصادية ، يلزم أن يتفق عليها الفرد أمولا حائلة للمحافظة على نظافة الأرض المزروعة ، وزرع أشجار أخرى بدل الأشجار التى تموت . وقد أغفلت السلطات هذه الحقيقة .

ونتيجة لذلك فإن الملاك الجدد قد أدركوا ، أنه لكي توفى الأرض بمحصول وفير فلا بد عليهم من الإنفاق عليها ، وحيث إنهم غير قادرين على الإنفاق فقد اضطروا إلى ترك مزارعهم ، وآثروا الخروب إلى داخل البلاد للعمل فيها ، عمالا بالأجر .

وبالإضافة إلى تدهور جودة المحصول بسبب الآفات الزراعية فإن الحكومة أرغمت المزارعين على ألا يبيعوا محصول القرنفل إلا إليها ، وبأسعار تحددها وزارة الخارجية ، وكان السعر الذى تشتري به الحكومة الرطل من القرنفل هو ١٥٠ شلنا ، وتبيعه للولايات المتحدة الأمريكية بـ ١٧٠٠ شلنا .

ولم يكن سعر الشراء من المزارع هو دخله الصافى ، فقد كان عليه أن يشتري حصيرا لتجفيف القرنفل ، وبناء أكواخ مؤقتة في موسم الحصاد ، وقضاء وقت ينشر فيه القرنفل على الحصير لتجفيفه في الصباح ، ثم جمعه في المساء ، أو في وقت المطر الذى ينزل في أى وقت .

وإذا أسعد الحظ المزارع فإنه لا يكسب من زراعته ما كان يحصل عليه وهو عامل أجير ، إذ كان أجر العامل هو ١٥٠ شلنا كل ثلاثة أيام ، وكان عمل الأجير عبارة عن مجيئه في الصباح فيصعد على أشجار القرنفل بلحنها ، ثم يأتى في المساء ليفصل القرنفل من رهره ، ويستلم أجره ، أما باقى الأعمال فيقوم بها صاحب الأرض ، ولهذا فقد أصاب الوضع الجديد

الملاك الحديد بخيبة أمل ، وتبخرت فيه كل أحلامهم ، وأصبحت البلاد فقيرة في القوى البشرية نتيجة هجرة المثقفين منها ، العرب والإفريقيين على السواء ، ولجأ ما لا يقل عن مائة ألف منهم إلى دار السلام ، وذهب عشرون ألفا على الأقل ، ممن هم من أصل عربي إلى وطنهم الأصلي ، وطن آبائهم وأجدادهم ،

ومن الغريب أن خطة الثورة — إذا استخدمنا هذا التعبير — لم ترسم بيد الإفريقيين وحدهم وإنما بمشاركة أبناء بعض ملاك الأرض العرب كذلك ، وهؤلاء كانوا مجموعة من الشباب بقيادة عبد الرحمن محمد الذي يعرف باسم « بابو » .

وكان بابو في البداية سكرتيرا عاما للحزب الوطني الزنجباري ثم اتصل بالصحف عندما أوفده حزبه للحصول على تأييد بكين ، رقدعين وكيلا عن وكالة أنباء الصين الجديدة (صينموا) ، وعمل من خلال نشرته المحلية التي أسماها « زانيوز » ، على نشر الأفكار الشيوعية في زنجبار وشكل مجموعة تسمى رابطة الشباب جعلها فرعا للحزب الوطني الزنجباري ، ثم أعاد تسميتها ، فأصبحت « حزب الأمة » عندما انفصل عن الحزب الوطني ، وكان توقيت انفصاله متفقا مع اقتراب موعد الانتخابات العامة ، بعد أن اقتنع بأن أيديولوجيته الشيوعية لا تجد صدى لدى زعماء الحزب الوطني الزنجباري ،

وعندما فشل « بابو » في تحقيق أهدافه من خلال الحزب الوطني فإنه أدمج مجموعته مع الحزب الأفروشيرازي للقيام بثورة ، وأعتقد أنه سيتمكن بعد ذلك من التخلص من الحزب الأفروشيرازي ، وفرض النظام الشيوعي تحت قيادته . لكن ذلك لم يتحقق ، لأن أفكار شركائه الآخرين كانت تتعارض مع أفكاره . وأعلن زعماء الحزب الأفروشيرازي من على منصات الخطابة أنهم سيظلون في حاجة لخدمات أصدقائهم طالما أنهم لا يملكون الثراء والتعليم . وبذلك أقنعوا هؤلاء الأصدقاء بأن وجودهم سوف يستمر

إذا وصل الحزب الأفرو شيرازى إلى السلطة . ولذلك أعطوا تأييدهم الكامل لخطط الأفرو شيرازى للقيام بانقلاب .

وفي يوم ٧ يناير ١٩٦٤ وصلت إلى دار السلام سفينة اسمها « ابن نطادون » تحمل شحنة عسكرية قيل أنها متجهة إلى الدانغل لاستخدامها في تحرير إفريقيا . لكن السلطات في دار السلام — بأحلامها التوسعية . استخدمت الشحنة لصالح البلد المستقل حديثا . ولذلك فإن الأصدقاء في زنجبار الذين ظلوا يسيطرون على القوة الصغيرة المجهزة بالمركبات الميكانيكية في زنجبار قد أعطوا تصريحها لمعظم الجنود المحضون مهرجان ينظمه الحزب الأفرو شيرازى مساء ١١ يناير ، وتم ذلك بالتنسيق تام فيما بين المجموعات الثلاث المعنية . وقامت سلطات دار السلام بتفريب الجنود والأسلحة واقتحام ثكنات قوة المركبات الميكانيكية التي نشأت من جنودها ومهاجمة مقر قيادة البوليس بأسلحة من الثكنات ومن دار السلام :

وحاول الرجال داخل مقر البوليس المقاومة — ولكن لم يكن لديهم أمل في النجاح — فنصحوا السلطان بمغادرة البلاد . فاستقل سفينته بمساعدة بعض المسئولين المهتمين بسلامته . وبعد فترة غادر دار السلام إلى إنجلترا . وبدأ الصراع على السلطة : فقد كان الأصدقاء يعتبرون أعداء ، وبدأ الخبراء والمستشارون من الدول الشيوعية يتدفقون على البلاد ، وبعد أن أقاموا علاقات مع الأهالي فلنهم تجاهلوا « بابو » الذى أتى بهم إلى البلاد ، وعملت سلطات دار السلام من أجل إقامة وحدة : وفي النهاية كان مصير بابو السجن في دار السلام ، كما حكم على كثيرين من أنصاره بالإعدام ، وهرب بعضهم من البلاد . أما العرب الذين نجوا من الموت فقد توجهوا إلى وطنهم الأم ، وأرسل المفوض العام لشتون اللاجئين بالتعاون مع الصليب الأحمر سعيًا إلى زنجبار لنقل العرب إلى دبي حيث استقبلوا هناك بقلوب مفتوحة .

ولكى نفهم لماذا وقعت الثورة في زنجبار فإنه لابد من الرجوع إلى

التاريخ . لقد رأينا كيف من الرياح الموسمية التي تهب على المحيط الهندي كانت تدفع العرب إلى القيام برحلات إلى شرقي أفريقية وإقامة علاقات مع سكانه . وبسبب تلك العلاقات وجد الإسلام طريقه إلى شرقي أفريقية ، وقد استمرت العلاقات الاجتماعية والثقافية من العرب وبين سكان شرقي أفريقية سنوات غير أنه من الصعب تتبع خطوط تلك العلاقات بدقة بسبب ارتباطات الدم بين العرب والإفريقيين . وكان اكتشاف طريق البحر إلى الهند والذي يعود الفضل فيه إلى العمانيين سببا في وصول الأوروبيين إلى أفريقية الشرقية الذين لمسوا عن كثب مائة العلاقات العربية الإفريقية . وقد بذلت تلك الدول قصارى جهدها لتخلى شعور من عدم الثقة بين الإفريقيين وبين العرب من أجل تسهيل تقسيم الأرض الإفريقية فيما بينها . . وقد دخل الحكم البرتغالي إلى شرقي أفريقية عن طريق القهر الباطن والتعذيب ، وكان الإفريقيون ياجأون إلى العرب طلبا للعون . . وكان العرب يقدمون يد المساعدة دون شروط لأصدقائهم الإفريقيين فيتمكنون من إلغاء الحكم البرتغالي الذي استمر لسوء الحظ في موزمبيق حتى عام ١٩٧٥ . . وتأسست الحكومة العربية في شرقي إفريقية بعد طرد البرتغاليين نهائيا ، ثم اقتضت على زنجبار عندما بدأت الدول الأوروبية الأخرى « السباق على إفريقية » ، وقد لاقت هذه الدول صعوبات في تحقيق أحلامها بسبب الوجود العربي ، ولذلك فقد أخذت تبحث عن وسائل وأسباب لإنهاء الوجود العربي هناك ، فبدأت بترويض الأكاذيب ، ثم أخيرا باستخدام القوة .

ولعل الحاجة لتكثيف الدعاية ضد العرب قد ظهرت عندما رفض السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار التعاون مع الألمان ضد مصالحي شعبي الساحل في تنجانيقا ، ويعود ذلك إلى عام ١٨٨٨ م عندما سيطرت الشركة الألمانية لشرقي أفريقية رسمياً على إدارة ساحل تنجانيقا . . وعندما اكتشف الأهالي هناك التندقى المفاجيء لأعداد كبيرة لمن الأوربيين إلى بلادهم . . فإنهم نظموا ثورة هاجموا خلالها الألمان وذهب الألمان الذين استطاعوا الهرب إلى زنجبار للاحتجاج لدى السلطان ، وكان رد السلطان

الذي أجاب به على احتجاجهم ، هو أن هؤلاء الأهالي أحرار ، وهم ليسوا عبيداً ، ولا يمكنني أن أسلمهم إليكم ، فهم يتبعونني بمحض إرادتهم ، ولقد أعطيتكم المواثيق بإيجاز ، لتجمعوا العوائد منها ، وإذا كنتم قد أسأتم معاملة الأهالي فلا تلوّموا إلا أنفسكم ، وهذا هو ردي عليكم ،

ولقد حاول الألمان إقناع السلطان باستخدام القوة لإخماد ثورة الأهالي ولكنه رفض بشدة قائلاً ، إن سياستنا تقوم على حسن المعاملة ، وليس هي القوة في حكم الشعوب ،

وعقب هذا الحادث تعرض الأهالي لحصار بحري فرضه عليهم الألمان وإلنجايز لمدة عام تقريباً ، من ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٨ إلى أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ :

ولم تنته لعبة الاستعمار الأوربي عند هذا الحد ، وستمرت ، وانتهت إلى توقيع اتفاق أنجلو ألماني ، في برلين ، في أول يولييه سنة ١٨٩٠ .

وكان الهدف من هذا الاتفاق هو حمل السلطان على مشاركتهم فيما يزعمونه من إجراءات ، لكن السلطان كان بطيء الرد عليهم ، فأمكنهم هذا من النجاح عام ١٨٩٠ ، عن طريق التهديد والمؤامرات والمكائد ، في جعل شرقي إفريقية كله ، وليست زنجبار وحدها ممتلكات للدول الغربية .

ويقتقد بعض الكتاب سلطان زنجبار ، ويحملونه ، بسبب تصرفه هذا تبعية ما تلا هذا الموقف من حوادث ، وأنه لم يستطع الاحتفاظ بقوته في شرقي إفريقية .

وقد ذكر المؤرخ البريطاني ، هولنج ورث ، أن إنجائرا سمحت لألمانيا بأخذ خير الأجزاء من ممتلكات السلطان وأنها أخذت لنفسها الباقي ، وأنها لنجد أسباباً تشكك في صحة البيان الذي أدلى به (سر فرسون)

وكيل وزارة الخارجية البريطانية في البرلمان الإنجليزي يوم ٢٤ يولييه سنة ١٨٩٠ ، من أنه ليس صحيحا: أن بريطانيا فرصت حمايتها على زنجبار كوسيلة لعرقلة نشاط أى دولة تجارية أخرى ، أو للتدخل فى سلطات السلطان .

ويقول وكيل وزارة الخارجية البريطانية : إن السياسة البريطانية نحو الشرق خلال الثلاثين عاما الماضية لم تكن تتدخل فى سيادة الحكام المحليين ، ولكنها كانت تضمن لهم ممتلكاتهم ، وتجعلها أكثر أمنا ، وشعبها أكثر سعادة ، وفى نفس الوقت يزاول حكامها استقلالهم .

وإن المرء ليجب من هذا القول ، ولا يمكنه إلا أن يشير إلى ٧٣ عاما من عدم التدخل فى اختصاصات السلطات المحلية ، فهى المدة التى زرعت الفرقة والبغض وأقامت النزاعات والخلاف والتوتر بين أفراد شعب عاش فى ظل وحدة وطنية لا ينظرون فيها إلى الأصول التاريخية .

وإن رفض الحكومة البريطانية حماية زنجبار أثناء الانقلاب الدموى فى يناير سنة ١٩٦٤ بعد شهر واحد من استقلالها من سيطرة بريطانيا التى استمرت ٧٣ عاما ، لم يشاهد أيضا ، ويمكن ربطه بحادث آخر وقع عام ١٨٨٤ ، ففى ذلك العام هاجست السفن الحربية الألمانية زنجبار ، فلبجأ السلطان إلى بريطانيا لمساعدته ، فرفضت بريطانيا طلبه .

ويقول المؤرخ الإنجليزي الدكتور هولنجزورث ، تعليقا على حادث ١٨٨٤ م : « على الرغم من ولاء السلطان برغش لبريطانيا فإنه لم يحصل على أى مساعدة من الحكومة البريطانية عندما واجهته فجأة مطالب الألمان فى مطلع عام ١٨٨٥ . . ومرة أخرى ، فإن كبرك لم يفعل شيئا لمساعدة السلطان ؛ لأن التعليمات التى وصفتها من وزارة الخارجية البريطانية أرغمته على إقناع السيد برغش بالإذعان لمطالب الألمان » .

وهذا نتيجة لانفاق ألماني بريطاني ، على أنه لابد أن يكون السيد

برغش ضحية للسباق نحو إفريقية ، مثله في ذلك مثل أى حاكم آخر في إفريقية ، جنوب الصحراء .

وإن الذى حدث بعد ذلك كان مجرد مناورات للتنظية على الخطط الاستعمارية ضد الحكام الضعفاء الذين كانوا يجهلون مصائرهم .

ولا يمكن للمرء أن يلوم هؤلاء الحكام على الطريقة التى أخضعوا بها أنفسهم ومصالح شعوبهم للاستعماريين ، فلتد اعتقدوا صدق المستعمرين فى مزاعمهم عن إقامة حكومة مستقرة ، وفرض القانون والنظام ، ومعالجة الأمراض وتنمية البلاد ، وتطوير الأحوال المعيشية .

ومن وراء هذا المظهر الخادع بدأ الاستعمار يورث برسال البعثات التبشيرية لتهانة الإفريقيين ، وجاء فى أعقاب المبشرين إنشاء حكومات استعمارية ، وبالتالي فتمد كان من الضرورى أن يتبع ذلك فرض القانون والنظام وتنمية الأراضى والخدمات الصحية ، وهذه كلها كانت شروطاً لازمة لاستغلال المواد الأولية فى هذه المستعمرات لصالح المستعمرين ،

وبدلاً من أن يستخلم الأوربيون الأهلى فى الأعمال المكتبية فلأنهم استوردوا أجناب من دول أخرى لشغل الوظائف الأقل مرتبة فى الجهاز الإدارى وتشجيع نفس هؤلاء الناس على احتكار التجارة ، ولم تفرض الدول الاستعمارية قيوداً على الهجرة إلى تلك البلاد إلا بعد أن بدأ المهاجرون فى تهديد مصالح الاستعماريين .

رغمما اختلفت الأساليب التى اتبعتها تلك الدول إلا أنها جميعاً كانت تشكل فريقاً واحداً ، له سياسة تملها مصالح مشتركة ، هى الاستحواذ على الأراضى لاستغلال المواد الأولية وخلق أسواق للمنتجات . وكان الدين قناعاً ينفى حمايات خدمة المصالح الحقيقية .

ولم تقف فرنسا مكتوفة اليدين عندما وقع الاتفاق الأجلو المائى

وإن كانت قد أحتجت لانتهاك اتفاقها مع بريطانيا . وكان الاتفاق الأنجاءو - فرنسي الموقع عام ١٨٦٢ ينزم البلدين باحترام استقلال زنجبار ولذلك طلبت فرنسا من بريطانيا تعويضا عن ذلك الإجراء . وقد أدى الأجماع الفرنسي إلى توقيع اتفاق انجاءو - فرنسي آخر في ٥ أغسطس ١٨٩٠ ينص على أن تسمحب فرنسا بمقتضاه اعتراضها على الحماية البريطانية على زنجبار ، وأن تعترف بريطانيا بمطالب فرنسا في مدغشقر ، وبذلك كان الأفريقيون وأراضيهم فيها لتتقسيم بين الدول التي كانت تزعم أنها جاءت كدول صديقة . وبعد أن نجحت الدول الاستعمارية في تقسيم شرق إفريقيا إلى وحدات سياسية واصابت تقسيم شعوبها إلى مجموعات صغيرة . وكانت هناك ١٧ مجموعة تخصص كل منها بمصالحها الذاتية وليس بالمصالح الوطنية .

وخلال الحرب العالمية الثانية سمح للأهالي من أصل آسيوي بشراء الأرز والسكر والمنسوجات البيضاء ، بينما سمح للأفريقيين بشراء ذبقي النمره والأقمشة السوداء لنساءهم . . وكان تجمع الآسيويين أمام مكتب الرقابة على الأغذية مريعا ، فقد كان ذلك الأسلوب تمجيدا لتطبيق مبدأ فرق تسد .

لقد مهد نظام الرقابة على التغذية طريقا لإشاعة الكراهية العنصرية . ولذلك فإن تتبع جلوس انقلاب زنجبار يقتضى تتبع تاريخ الاستعمار نفسه ، فقد أتاحت فترة التنافس على أفريقية فرصاً كثيرة لزراع بلور الكراهية العنصرية . . وقبل عام ١٩٦٤ كان الأعضاء المعينون في المجلس التشريعي الذين يمثلون مختلف المجموعات العنصرية هم ٣ عرب و ٢ أفريقيون و ٢ هنود ، وأوربي واحد . . ولم يكن لحولاء الممثلين أى نفوذ في المجلس ، لأن كل السلطات كانت بيد المقيم البريطاني وحفنة من المسؤولين البريطانيين الذين يسيطرون على الشؤون التشريعية . . ورغم أن العرب كانوا أقلية فلهم أعطوا معظم الامتيازات لجرد إثارة الكراهية

العنصرية ، . والحقيقة أنها لم تكن امتيازات حقيقية ، ولكنها كانت امتيازات مظهرية .

وقد أدرك العرب في النهاية حقيقة الخطر وعملوا على تجنبه عندما قدمت اللجنة التنفيذية إلى الحكومة البريطانية في يونيو ١٩٥٤ قائمة طويلة بطلبات ، اعتبرتها مناسبة لتحقيق نهضة سياسية تقدم لشعب زنجبار كله بصفة عامة وكانت هذه المطالب تتضمن الاقتراع العام للبالغين وانتخابات على أساس صوت واحد لكل رجل وأغلبية غير رسمية من الأعضاء المنتخبين في المجلس التشريعي ونظام وزارى وملكية دستورية ، وكما كان متوقفا فقد رفضت الحكومة البريطانية المطالب كلها ، ولذلك سحبت المجموعة العربية أعضاءها من المجلس وقاطعت كل اللجان الحكومية وامتنعت طوال ١٨ شهراً عن التعامل مع الحكومة البريطانية ، وناشدت المجموعة العربية كل المجموعات الأخرى بتأييدها . وكان ذلك إصراراً منها على إقرار السلام الذى عرفت به زنجبار في العالم كله ، ولقى ذلك الموقف تأييداً إجتماعياً في البلاد ، وكان طريقاً مضموناً لتحقيق الوحدة الوطنية . .

وما كانت الحكومة البريطانية تدرك تماماً نتائج تلك الوحدة فلأنها عملت على هدمها ، ودبرت حملات سرية تهديد الجماعات العنصرية الأخرى ومنعها من وضع يدها في يد العرب . . وسيدهش القارىء إذا علم أن هذه المجموعة المميزة عرضت نفسها لفقد امتيازاتها والنضال من أجل حقوق الأغلبية ، ولقد حدث ذلك في زنجبار . وقد يتساءل القارىء . ، لماذا ؟ والسبب هو أن العرب اتخذوا من زنجبار وطنهم طوال عشرات السنين . . والعرب وحدهم هم الذين تزوجوا مع الأفريقيين وعاشوا معهم إلى حد أنهم كانوا يتكلمون لغتهم .

وعندما بلغت المقاطعة العربية شهرها الثامن عشر في ديسمبر ١٩٥٥ فلأن مجموعة صغيرة من الفلاحين الذين أحسوا بالأخطار القادمة للسياسات العنصرية أعلنوا تشكيل الحزب الوطنى الزنجبارى الذى ناضل لتوحيد (م ٨ - عمان ونزقى أفريقية)

للشعب تحت شعار واحد ، هو القومية من أجل التخلص من السياسات التي سعت لتدعيم التقسيمات العنصرية، وقد شجعت تلك الخطوة المجموعة العربية التي لم تتردد في تأييدهم تأييداً كاملاً . أما الوطنيون فقد قاموا من جانبهم بتأييد كل مطالب المجموعة العربية ، وقام زعمائهم بالعمل ليل نهار ، وزيارة القرى ليشرحوا للشعب أهدافهم الوطنية « وهي الوحدة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية ونبذ العنصرية والاستقلال العاجل ، ووافق الكثيرون وانضموا إلى تلك الحركة .

وأحدثت ضغوط هذه الأحداث حالة من القلق لدى السلطات فبدأت حملات ضد المجموعة العربية التي أصبحت بدورها أكثر قوة وتصميماً .

ولقد أرغمت مطالب الوطنيين الحكومة على الموافقة على تخصيص ٦ مقاعد منتخبة من بين الـ ٢٥ مقعداً في المجلس التشريعي ، ثم شغل الحزب بالأعداد للانتخابات ، ومع ذلك فإن السلطات ومويديها المحليين بالإضافة إلى حفنة من الصحفيين لم يوقفوا حملاتهم ضد الحزب الوطني . لكن كلما زادوا من حملاتهم كلما زادت شعبية الحزب إلى أن وجدت السلطات أن الحل هو تشجيع وتشكيل حزب منافس على أسس عنصرية ، ولذلك تم تشكيل الحزب الأفرو شيرازي في ١٩٥٧ ليدخل الانتخابات في يوليو ١٩٥٧ ، ولما كانت السلطات تترك أن الحزب الوطني يمثل التهديد الحقيقي لمركزها فلما جاهدت لتقويضه ، وقد اعترف « بيني » الذي أشرف على انتخابات ١٩٥٧ في تقريره ، بأن مكتب الانتخابات التابع له وموظفي الحكومة كانوا وراء تشكيل الحزب الأفرو شيرازي لكي يعارض الحزب الوطني وليس الاستعمار البريطاني .

ويبين تقرير « بيني » نوع الحكومة التي أرادت السلطات أقامتها في زنجبار ، ومن الغريب أن نفس هذه السلطات لم تسمح فحسب بل إنها شجعت إقامة نظام الحزب الواحد في تنجانيقا المجاورة . وكان حزب الاتحاد الوطني

الافريقي لتنجانيقا هو أول حزب سياسي يشكلها، أما الحزب المناهس الذي شكله المستوطنون فإنه حزب تنجانيقا المتحدة ، لكن هذا الحزب تم حله لتسماح لحزب الاتحاد الوطني الأفريقي لتنجانيقا بالبقاء ، وحتى الأثاث الفاخر الذي كان يخص الحزب المنحل أخذ وقدم هدية للحزب الآخر، وكان سلوك الإدارة الاستعمارية متحيزاً بوضوح . وكان أول ضحية في زنجبار لتلك الإدارة هو السيد سيف حمود بن فيصل آل سعيد الذي أبدى الاقتراح العام وفكرة رعايا زنجبار من القومية الزنجبارية والاستقلال الفوري للجزيرة . ورغم أن أي حملة ضد الأسس العنصرية كانت تعتبر مضادة لقانون الانتخاب المعلن إلا أن الحكومة شجعت الحزب الأفرو شيرازي على القيام بذلك علناً . . بل إنها شاركت في الحملة لصالحه ، وذهب أنصار الحزب الوطني الزنجباري إلى صناديق الانتخاب بمنشورات تطالب برفع مستوى المعيشة وتأمينات لكبار السن والعاطلين وتنمية الزراعة واستغلال المصادر الطبيعية وغير ذلك من المطالب ، لكن أنصار الحزب الآخر لم يكن لديهم ما يطالبون به سوى تكثيف المشاعر العنصرية والطبقية وتضليل الرأي العام ، وأسفرت الانتخابات عن هزيمة كاملة للحزب الوطني الزنجباري وحصل الحزب الافرو شيرازي على خمسة مقاعد وذهب مقعد واحد لجمعية المسلمين الهنود . . وكازت هذه النتيجة مفاجئة للكثيرين الذين يعرفون نشاط الحزب الوطني في شرق إفريقيا .

وبعد عدة انتخابات أخرى فاز تحالف الحزب الوطني الزنجباري وحزب شعبي زنجبار وبيمبا بأغلبية المقاعد وشكل الحكومة ، وحدث يوم العاشر من ديسمبر ١٩٦٣ موعداً لاستقلال زنجبار وبعد ذلك بشهر واحد في ١١ يناير ١٩٦٤ وقع الانقلاب الدموي الذي أنهى العلاقة الطويلة للعرب بالافريقيين والتي استمرت أكثر من ثلاثة آلاف عام وبعد ١٤ عاماً من الثورة أدركت سلطات زنجبار أن السياسة العنصرية ألحقت بها أضراراً جسيمة ، وهي تحاول الآن حث العرب على العودة إلى زنجبار والمساعدة في إحياء اقتصاد البلاد .

وفي كثير من بلاد العالم يحظى المقاتلون من أجل الحرية باحترام كبير ، ولكن العرب - زنجبار والذين قاموا بدور بارز من أجل استقلال البلاد وبدأوا التحرك من أجل الاستقلال قد فقدوا كل امتيازاتهم . . . فهم الذين بدأوا بمقاطعة المجالس التشريعي وكل أوجه النشاط الحكومي من أجل الاستقلال، ولكنهم في المقابل عوملوا كأعداء ، وقتلوا ، وعذبوا بلا رحمة ، وطردهوا من بلادهم مجردين من كل ما يملكون .

ومع ذلك فإن من المستحيل قطع الروابط الاجتماعية مع أهالي شرق إفريقية خاصة في زنجبار والمدن الساحلية في كينيا وتنزانيا فإن التزاوج العربي الإفريقي خلق رابطة أبدية وعلاقة ستستمر إلى ما لا نهاية بينهما .

وبعد أن أنفقت سلطات زنجبار الاحتياطيات الكبيرة التي ورثتها عن الحكومة السابقة فإنها أدركت أن الكراهية لا يمكن أن تسود، فالثروة التي حصلت عليها من خلال مصادرة الممتلكات قد انفقمت بغير حساب وأصبحت البلاد فقيرة في القوة البشرية والاحتياطيات المالية .

والآن فإن الحكومة قد فتحت الباب للمهاجرين الذين يرغبون في العودة وبعثت بوفد خاص إلى دول الخليج لإقناع الناس الذين طردوا أو هربوا بالعودة إلى زنجبار .

عمان وعهد ما قبل السلطان قابوس

عندما تولى السيد سعيد بن تيمور والد السلطان قابوس الحكم عام ١٩٣٦ كانت عمان في حالة فقر اقتصادي ، فقد كانت الخزينة فارشة تماماً ، قد ظل هذا الوضع قائماً منذ وفاة السيد سعيد بن سلطان الكبير عام ١٨٥٦ وكان سبباً في تقسيم المملكة إلى دولتين هما عمان وزنجبار ، وكانت تقف وراء هذه الحالة مجموعة من العوامل ، مثل تدهور القوة البحرية العمانية بعد ظهور السفن التجارية وتضاؤل الصادرات بحيث أصبحت كمية صغيرة من السمك والبلح ، والاعتماد الكامل في الدخل على العرائد الحمركية ، وعدم السداد المنتظم للإعانة المالية التي كانت تحصل عليها عمان من زنجبار ، ولذلك لم يكن دخل البلاد يكفي لمواجهة النفقات ، ولذلك قرر السيد سعيد ابن تيمور الاعتماد على الدخل الضئيل وموازنة الدخل والإنفاق دون أي عجز مالي .

ولما كان السيد سعيد يرفض تفويض مسؤولياته لأي شخص آخر فإنه كان يباشر كل شيء بنفسه حتى إنه عندما لم يكن في وضع يسمح بمباشرة الأمور فإنه يطلب ممن يحب أن تعرض أمورهم عليه أن ينتظروا حتى يتمكن من بحث أمورهم بنفسه ، مما أدى إلى البطء الشديد في تصريف الأمور ، وكان عقبة في سبيل تقدم البلاد .

ولقد جاء وقت في عام ١٩٥٨ كان لابد فيه على السيد سعيد أن يطلب المساعدة من بريطانيا بعد ما وقعت اضطرابات داخلية في عمان بسبب الإمامة ، وأوفدت بريطانيا «جولين إمري» إلى مسقط للبحث مع السلطان في طبيعة هذه المساعدة التي يطلبها .

وقد تم الإتفاق على تبادل الخطابات ، وشملت المساعدات تطوير

القوات المسلحة ، والطيران المدني ، وتقديم بعض الخدمات للقوات الجوية ،
وعدة مشروعات أخرى للتنمية الاقتصادية في مسقط وعمان .

وفي أعقاب توقيع هذا الاتفاق في لندن يوم ٢٥ يولييه ١٩٧٨ أنشئت
قوات السلطان المسلحة ، وقوات عمان الجوية ، وأما فيما يتعلق بالمساعدة
الخاصة بالتنمية فلم تكن هناك شروط حول الكيفية التي سيتم إنفاق الأموال ،
ولذلك فإن السلطان قد وضع خطته التي يراها في هذا الشأن .

وفي نوفمبر ١٩٦٤ أعلنت شركة تنمية بترول عمان أنها عثرت على
بترول بكميات تجارية ، وأعلنت عن البدء في تصديرها عام ١٩٦٧ .

ولإزاء هذه التطورات الاقتصادية، أبلغت الحكومة البريطانية السلطان ،
بأنها ستوقف المعونات العسكرية ومعونات التنمية عندما يبدأ السلطان في
استلام عوائد البترول .

ولقد كان هذا الدخول بالحديد بمثابة الضوء الأخضر الذي يعلن نهاية
الليل الطويل ، وبداية الفجر المشرق على عمان . ولقد بدأ السلطان
ببعض المشروعات الهيكلية . .

وفي هذه الفترة أصدر السلطان بياناً عاماً قال فيه « أولاً : يجب أن
نبدأ ببناء مكاتب لمختلف الإدارات الحكومية . ثم مساكن للمستوطنين
الذين سيأتون من الخارج ثم القيام بخطوة بخطوة بمشروعات مختلفة ، مثل
المستشفيات ، والمدارس ، والطرق ، والمواصلات ، والأعمال الضرورية
الأخرى ، بما في ذلك تنمية مصادر الثروة الزراعية والحيوانية والسمكية .
وحتى تمتد المشروعات الحديثة فوق السلطنة كلها وتصل لكل منطقة حسب
احتياجاتها ، ثم بعد ذلك سوف ندعم الجهاز الحكومي بتزويده بعدد من
الخبراء والفنيين نظراً لأن هناك ضرورة لإحداث تغييرات في الجهاز الحكومي
القائم » .

وحتى ذلك الوقت كان السيد أحمد بن إبراهيم هو الوزير الوحيد في الحكومة ، وكانت مسؤولياته هي الإشراف على الشؤون الداخلية والقبالية ، وكان السلطان نفسه يعيش في عزلة تامة في صلالة ، وكانت المدن الرئيسية تحكم بواسطة ولاية مسئولين مباشرة أمام وزير الداخلية . . . وكانت هناك حلقة ربط أخرى في نظام الرقابة الإدارية في الداخل ، من خلال الشيوخ (رؤساء القبائل) والشيوخ كانوا مسئولين أمام السلطان من خلال الولاية ، ومن خلال الولاية أمام وزير الداخلية ، وكانت الأمور الأخرى تحت رعاية سكرتيرين يرأسون بعض الإدارات .

وكانت الخدمات الاجتماعية من اختصاص إدارة التنمية التي أنشئت في عام ١٩٥٩ للتصرف في المعونة المقدمة من بريطانيا بمقتضى اتفاق عام ١٩٥٨ .

وقد اشترت الإدارة نشاطها في ثلاثة قطاعات ، هي الصحة ، والزراعة ، والأشغال العامة .

وفي مجال الصحة أنشئت عدة عيادات في أنحاء البلاد ، وكان يقوم بالخدمة في هذه العيادات ممرضون من الرجال ، كما أقيمت المستشفيات التي يشرف عليها أطباء ، ويعاونهم فيها هيئات تمريض من الرجال ،

وكان المستشفى الوحيد المناسب هو مستشفى البعثة الأمريكية في مطرح ، وفي مجال الزراعة أنشئت مزرعتان تجريبيتان في نزوى وفي صحار ، ولكنهما لم تحققا نتائج إيجابية بسبب قلة الاعتمادات المالية .

وفي مجال الأشغال العامة كان الإنجاز الوحيد هو شق طريق ، طوله مائة وخمسون ميلا ، من العنيزة إلى صحار .

وعندما تأكد أن أول شحنة من البترول سوف يتم تصديرها في أغسطس سنة ١٩٦٧ نادرت بريطانيا بوقف معوثاتها المالية ابتداء من مارس

عام ١٩٦٧ (نفس العام) أى قبل ستة أشهر من تصدير أو شحنة من البترول .

وأصدر السلطان بيانا قال فيه : « إننا سنعتمد خلال هذه الفترة الانتقالية على احتياطياتنا المالية » .

وابتداء من أغسطس ١٩٦٧ عندما بدأ تصدير البترول حاول السلطان الوفاء بوعده ، وعين في أوائل ١٩٦٦ مستشاراً كلف باعداد وتنفيذ خطة التنمية الاقليمية في مسقط ومطرح .. وتم إعداد الخطة بالتشاور مع السلطان ، وبعد أن قبلها من حيث المبدأ .

بدأ العمل بإنشاء مساكن المسئولين في الحكومة ، والمكاتب ، ومكتب جديد للبريد ومدرسة للبنات ، ومستشفى في مسقط ، ومشروع للمياه . . . وكان مشروع المياه . . هو أضخم مشروع وقلدت تكاليفه بحوالى مليون جنيه ، وتضمنت المشروعات الأخرى مد الكهرباء إلى مطرح ومسقط ، وميناء مطرح ، وقد أسندت إدارة مشروع الكهرباء إلى شركة خاصة غالية مملوكة لسهمها من التجار البريطانيين ، وكانت الكهرباء والمياه والميناء هي أكثر المشروعات احتياجاً لأهميتها ولأنها تميز علامة مملووسة على طريق التقدم . . وكانت هناك مشروعات أخرى للزراعة أصبحت فيما بعد رصيذاً للبلاد تأتي بعد البترول والمصادر المعدنية ، ويوضح تاريخ التعليم الرعاية التي يتلقاها السلطان لتعليم الشعب ، ورغم أن التعليم ضرورى جداً لعيان إلا أن تقدمه كان بطيئاً جداً في الماضي . . وأول مدرسة عامة أنشئت كانت في عام ١٩١٤ . وأنشئت مدرسة أخرى تسمى السلطانية عام ١٩٢٧ ، وقد أغلقت بعد ذلك بستين ، ثم أعيد فتحها واستمرت حتى عام ١٩٤٠ عندما افتتحت في مسقط مدرسة جديدة اسمها السعيدية ، وفي عام ١٩٥٩ افتتحت مدرسة سعيدية أخرى في مطرح بالاستفادة من المعونة البريطانية .

وفي عام ١٩٦٤ أنشئ مبنى آخر ملحق بمدرسة مسقط ولكنه لم يستخدم على الاطلاق . . وكان في كل من المدرستين (مدرسة مسقط ومدرسة مطرح) ثمانية فصول ، في كل منها أربعون تلميذاً ، ولم يكن مستوى التعليم في هاتين

المدرستين أعلى منه في التعليم الإبتدائي ٠٠ ولم يسمح بإقامة مدارس خاصة ٠٠
وحدث أن بعض التجار المحليين في صور اشتركوا معاً في تمويل إقامة
مدرسة ولكن الأوامر صدرت لهم بوقف المشروع عندما بلغت أنباءه
إلى السلطان ٠٠

أما الشباب القليلون الذين استطاعوا الخروج من البلاد للتعليم فلم يكن
موثق فيهم بعد عودتهم وكان كثير من الشباب قد خرجوا من البلاد بالطرق
القانونية ليتعلموا في الكويت والبحرين والعراق والقاهرة بل وحتى روسيا
وقد تفرق هؤلاء الذين تخرجوا قبل عام ١٩٧٠ في كثير من أنحاء العالم العربي
و عملوا مهندسين ومدرسين وأطباء . الخ .

ولم يكن أحد يستطيع العودة إلى عمان في ظل تلك الظروف وكان
معدل الرسوم الجمركية كبيراً ، ولذلك فإن اقتصاد البلاد كان محصوراً
داخل حدودها ، فلم تكن الرسوم تفرض فقط على السلع المستوردة من خارج
البلاد بل أيضاً على السلع القادمة من العاصمة إلى الداخل ٠٠ وكان معدل
الرسوم ٥% ولكنه رفع إلى ٢٥% عام ١٩٢٠ كعقاب للاهالي في الداخل
لثورتهم ضد السلطان ، ولقى ذلك معارضة قوية من سكان الداخل ونتيجة
لذلك جرت مفاوضات بين السلطان وبين الشيخ عيسى بن صالح بن علي كممثل
للعمانيين في الداخل والمفوض السياسي البريطاني مستر ونجت كوكسبيط ، وتم
توقيع معاهدة في السيب في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ وكانت تتضمن ثمانية بنود :
أربعة تخص شعب عمان ، وأربعة تخص شعب حكومة السلطان :

والتي تخص شعب عمان هي : -

- ١ - لا يحصل من أي فرد أكثر من ٥% بصرف النظر عما إذا كان
قادمًا من الداخل إلى مسقط أو مطرح أو صور أو بقية مدن الساحل .
- ٢ - يتمتع العمانيون سكان الداخل بالأمن والحرية في جميع مدن الساحل .
- ٣ - ترفع كل القيود على أي فرد يدخل أو يخرج من مسقط ومطرح
وغيرهما من المدن :

٤ - لا تمنح حكومة السلطان حق اللجوء لأي مجرم يهرب من عدالة عمان الداخلية ولا تتدخل في شؤونهم الداخلية .

والشروط التي تخص حكومة السلطان هي :

١ - يتعين على كل القبائل وجميع الشيوخ أن يعيشوا في سلام مع السلطان ، ولا يهاجموا مدن الساحل ، ولا يتدخلوا في نشاط حكومة السلطان .

٢ - يتمتع بالحرية جميع الذين يذهبون إلى عمان (الداخل) لأداء أعمال مشروعة أو لنشاط تجارى ولا تفرض أى قيود على التجارة ، وينعمون بالأمن .

٣ - لا يحق لشعب عمان الداخل أن يعطى حق اللجوء إلى كل من يرتكب عملاً غير مقبول ، أو أى مجرم يهرب إليها .

٤ - ينظر في مطالب التجار وغيرهم ضد شعب عمان الداخل ، ويتخذ بشأنها قرارات على أساس العدل ، ووفق قواعد الشريعة الإسلامية .

وقد تمت صياغة هذه المعاهدة بغموض متعمد ، كما اعترف بذلك للوسيط البريطاني ، مستر ونجت ، الذي قال : إن الفكرة من المعاهدة كانت دفع القبائل إلى الاعتقاد بأنها تملك استقلالها ، وفي الوقت نفسه فإن الحكومة البريطانية تستطيع أن تنهى أى اعتقاد لدى السلطان بأن هذه المعاهدة بشروطها المذكورة تنتقص شيئاً من سيادته على شعب عمان كله وبلادها .

وعلى أى حال فإن المعاهدة قد أكدت أن للشعب العماني في داخلية البلاد حقاً تاريخياً وعملياً يؤثر في أسلوب حياتهم ، الذي يختلف في بعض جوانبه عن الأسلوب المتبع بين سكان مسقط وبلاد الساحل بصفة عامة ، كما أكدت في نفس الوقت أن الإمام ، باعتباره زعيم القبائل الداخلية ، له السلطة

المطلقة والنفوذ الشامل فيما يتعلق بمزاولة حقوقه ، ومع كل هذا فلم يكن له في المعاهدة أى إشارة توحى بأن داخل عمان يعتبر دولة مستقلة .

* * *

لقد بدأ تاريخ البترول في عمان عام ١٩٣٧ عندما حصلت شركة البترول الدولية من السلطان على حق امتياز للتنقيب .

وفي عام ١٩٥١ تشكلت شركة باسم « شركة تنمية بترول عمان » لكن عمليات التنقيب تعثرت بسبب الظروف الداخلية في البلاد ، فقررت الشركة التوقف عن عمليات التنقيب بعد أن أنفقت عليها حوالى ١٢ مليون جنيه .

وفي عام ١٩٦١ قرر الشركاء الباقون ، وهم ، شل وجلبتكيان القيام بمحاولات جديدة ، وفي يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٤ أعلن عن اكتشاف البترول بكميات تجارية في حقول فهود ونتيح وإيبل ، واستعدت الشركة لبدء عمليات التصدير التجارى عام ١٩٦٧ ، وتم تصدير البترول في أغسطس عام ١٩٦٧ لأول مرة في تاريخ عمان .

ومن أجل ضخ البترول تم مد خط أنابيب طوله ١٧٥ ميلا من حقول البترول ماراً بالجبال عبر وادى سمايل ، وينتهى عند رصيف ميناء الفحل ، وعندما أعلن السلطان مشروعه للتنمية عام ١٩٦٨ نتيجة لعوائد البترول فإنه وعد بتوجيه اهتمام خاص للشعب المقيم في المنطقة التي يوجد بها البترول ، ومع ذلك فلم يتم تنفيذ أى مشروع .

وعاشت عمان تحت قوانين من قيود عديدة فرضها السلطان . ولم يكن العمانيون على الساحل ، خاصة الذين يتركزون في مسقط وطرح ، يملكون حرية مد نشاطهم التجارى إلى الداخل ، كما لم يكن العمانيون في الداخل يستطيعون الحضور إلى المناطق الساحلية التجارة ، باستثناء شراء احتياجاتهم .

مخالاتهم الصغيرة وبيع بلحهم . وكانت القيود من العوامل العديدة التي أثارت سخط الشعب على حكم السلطان سعيد .

وكانت العلاقات مع الدول الأخرى قاصرة على بريطانيا والهند ، ولم تكن هناك أى علاقات مع العالم العربى ، وكان لبريطانيا والهند قنصل عام فى عمان ، لكن عمان لم يكن لها أى ممثل فى الدوائين ، وكان العلاقات مع بريطانيا تحكمها معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة الموقعة عام ١٩٥١ ، والتي تعتبر امتدادا للمعاهدة الأصلية لعام ١٧٩٨ ، أما العلاقات مع الهند فتحكمها المعاهدة الموقعة عام ١٩٥٣ ، واعتمد السلطان على تمثيل بريطانيا له فى العالم ، خاصة فى الأمم المتحدة .

أما البلاد الأخرى التي كان للسلطان علاقات دبلوماسية معها - ولكن لم يكن له ممثلون بها - فهي الولايات المتحدة الأمريكية - وألمانيا الاتحادية ، وفرنسا .

وكانت المعاهدة الأصلية مع الولايات المتحدة قد وقعت عام ١٨٣٣ ، من جانب السيد سعيد بن سلطان وروبرتس . وتجددت عام ١٩٥٨ ، لكن الأمريكين لم يأتوا الى عمان خلال السلطان سعيد بن تيمور . واكتفوا بإيفاد ممثلهم فى عدن للقيام بزيارات من حين لآخر إلى مسقط ، ليرى ما إذا كان قد جد جديد .

وبالنسبة لألمانيا الاتحادية فقد حدث تبادل للخطابات عام ١٩٦٧ على أساس المعاهدة التجارية الموقعة بين عمان والألمان عام ١٨٧٧ ، ولكن لم تكن لها نتائج عملية فى السنوات اللاحقة .

وفىما يتعلق بفرنسا فالعلاقات معها تعود إلى أيام نابليون ، ولكن لم تجر أى اتصالات ذات أهمية خلال عهد السلطان سعيد بن تيمور . وفى الحقيقة فإن السلطان أوضح عن طريق ممثليه فى الأمم المتحدة أن المعاهدات

التي وقعها أسلافه غير ملزمة له ما لم يتم تجديدها ، وكان يريد بذلك أن يوضح أن معاهدة السيب أصبحت لاغية .

ولم تكن للسلطان أى ثقة بالأمم المتحدة ، وقد أعلن ذلك ، لكنى يوضح - من خلال الممثل البريطاني - أن عمان دولة مستقلة ذات سيادة على كل أراضيها .

وكانت عمان قد انضمت إلى الأمم المتحدة لأول مرة عام ١٩٥٩ بعد أن طلب السلطان المساعدة ضد الإمام . وعندما أرسلت له بريطانيا قوات ، فإنها اتهمت بالعدوان ، وخلال السنوات التالية أقنعت الحكومة البريطانية السلطان ، بدعوة الأمم المتحدة لإرسال ممثل عنها إلى عمان ليرى بنفسه الموقف على الطبيعة . وفي ١١ ديسمبر ١٩٦٢ سلم المندوب البريطاني للسكرتير العام للأمم المتحدة دعوة من سلطان مسقط وعمان لإرسال ممثل شخصي لزيارة السلطنة في العام الذي يليه لدراسة الأوضاع عن الموقف هناك على الطبيعة ، وقبل السكرتير العام الدعوة ، وعين مستر روبرت دي ريبينج ممثلاً شخصياً عنه ، وغادر نيويورك في ١٨ مايو ١٩٦٣ ، إلى عمان ، وعاد إلى نيويورك في أول يوليو ١٩٦٣ .

وبعد تقديم تقرير دي ريبينج عن الموقف في عمان إلى الأمم المتحدة ، شكلت لجنة مؤقتة لبحث مسألة تقرير المصير في عمان . واستقبل السلطان رئيس اللجنة في لندن ، ولكنه رفض السماح لأعضائها بزيارة عمان ، إذ لم يكن تقرير اللجنة يرضى السلطان .

ولذلك أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٧ ديسمبر ١٩٦٥ قراراً يعترف بأن حق عمان الداخل في تقرير المصير ، قد منع مزاولته من جانب بريطانيا .

وقد صدر القرار بأغلبية ٦١ صوتاً ضد ١٨ صوتاً وامتناع ٣٢ دولة

عن التصويت ، وتغيب ستة أعضاء . ولذلك كان هذا القرار نهاية لأي اهتمام من جانب السلطان بالأمم المتحدة .

وفي أوائل عام ١٩٥٧ ناقشت الجامعة العربية مشكلة استقلال عمان بعد أن عرضها مكتب الإمامة ، وقد أقام زعماءه مطالبهم على أساس معاهدة السيب ، ولكن معاهدة السيب كما شرحنا آنفا قد صيغت بعبارات غامضة وبصورة مقصودة ؛ وحتى عندما عرضت المشكلة على الأمم المتحدة فإن بعض الدول التي امتنعت قد فعلت ذلك بسبب غموض بنود معاهدة السيب ، وذكر ممثل أورجواي - مثلا - أنه امتنع عن التصويت بسبب عدم الوضوح فيما يتعلق بالحقائق .

وقد تضمن تقرير ريدينج فقرة تصف موقف السلطان ، وقد تردد قبل أن يبدأ ريدينج رحلته إلى عمان لمقابلة السلطان ، أن مندوب شيلي سأل عن عدم إيفاد السلطان ممثلا عنه إلى الأمم المتحدة ليدافع عن قضيته . وعندما قابل ريدينج السلطان في ٢٤ مايو ١٩٦٣ ، فإن هذا الموضوع أثير ، وعندما أجاب السلطان على السؤال فإنه بدأ أولا بتأكيد سيادته وأوضح بشكل محدد :

١ - أن بلاده ليست عضوا في الأمم المتحدة :

٢ - أنه أبلغ السكرتير العام أن أية مناقشة من جانب الجمعية العامة لمشكلة عمان الداخلية تمثل تدخلا في شؤون بلاده .

٣ - أنه لا يرى سببا في أن يذهب إلى المحكمة ويجلس في مقعد المهيم .

لقد عاشت عمان في عزلة كاملة خلال عهد السلطان سعيد بن تيمور . ولم يكن ممكنا أن يتسامح الشعب إزاء ذلك الوضع ،

فبدأ تدبيراً تحركات ضده . وحصلت المعارضة الإمامية على تأييد من الدول العربية خاصة من العراق وسوريا والسعودية ومصر والكويت ؛ وبعد ذلك قامت جهة تحرير ظفار التي كانت في مراحلها الأولى ، كحركة انفصالية تسعى من أجل استقلال ظفار وتحظى بتأييد الدول الشيوعية ، ثم أصبحت في السنوات التالية تمثل خطراً كبيراً ليست لعمان فحسب ، بل أيضاً لدول الخليج كلها . بعدان حصلت على تأييد من الدول الشيوعيين

التمرد في ظفار

ظهرت فكرة العمل من أجل استقلال الإقليم الجنوبي - ظفار - عن عمان عندما غادر بعض شباب ظفار بلدهم لبحث عن عمل في دول الخليج في منتصف الخمسينات من القرن العشرين ، وهناك اتصل هؤلاء الشباب بعناصر عربية من دول أخرى ، فساعدوهم على تدبير خطة للتمرد .

ولم تكن هناك في عمان سلطة مستقرة في ذلك الوقت ، فالمنازعات القبلية أصبحت من المشاكل المتعذر حلها ، وقد اتسع العداء في ظفار بين الكثيرين الذين يحتلون السهول ويقطنون فيها وبين الفاراس ، سكان القرى ، الذين يعيشون في التلال إلى حد نشوب الحرب بينهما . وقد استغل شباب ظفار في دول الخليج هذه الأوضاع ، وكثرت اتصالاتهم بعدد من العناصر التي تحمل أفكارا قومية عربية ، أو أفكار ماركسية ، واستقر رأيهم على تكوين تشكيل فرع ظفار لحركة القومية العربية .

وفي عام ١٩٦٢ تشكل هذا الفرع باسم الجمعية الخيرية الظفارية ، وقد زعم مؤسسوه ، أن الهدف من هذه الجمعية هو جمع الأموال لبناء المساجد ، ولمساعدة الفقراء من المواطنين .

ورغم أن أعضاء هذه الجمعية لم يكونوا متحدين أيديولوجيا ، فهم القوميون ، والماركسيون ، والاشتراكيون ، إلا أنهم جميعا كانوا متحدين في معارضتهم لحكم السلطان ، ولدور بريطانيا في شؤون البلاد ، وقد قاموا وراء ستار الجمعية الخيرية ، بجمع الأموال ، وتجنيد أعضاء والقيام بالاتصالات السياسية بغية القيام بثورة مسلحة ضد حكم السلطان والنفوذ البريطاني في منطقتهم .

(م ٩ - عمان وشرق أفريقيا) .

وتكونت مجموعة أخرى، تسمى، منظمة جنود ظفار، من الظفاريين الذين يعملون في فرق الجوالاة العمانية، وقد عملوا من أجل إقامة دولة مستقلة في ظفار.

وكانت هناك أيضا منظمة الشباب العربي الظفاري، التي تكونت، فرعاً لحركة القوميين العرب، وهو الفرع الذي تولى قيادته شيخ قبيلة الكشميري، مسلم بن نوفل الذي كان يعمل من قبل ميكانيكياً في جراج السلطان.

وفي ربيع ١٩٦٣ وزعت هذه المنظمة منشورات تحض على التمرد، كما هاجمت عربات شركة البترول، وقتلت أحد حراس السلطان، واعتقل قائد المجموعة لكنه تمكن من الهرب وتوجه إلى السعودية حيث اتصل بالإمام غالب، وذهب من هناك إلى العراق بمساعدة السعوديين، بحيث تلقى تدريباً على حرب العصابات وضم أعضاء آخرين لمجموعته.

وتشكلت جبهة تحرير ظفار عام ١٩٦٤ من تلك المجموعة، ثم تعاوت معها بعد ذلك ثلاث مجموعات أخرى هي: الجمعية الخيرية الظفارية، ومنظمة جنود ظفار، والفرع المحلي لحركة القوميين العرب.

وتلقت الحركة مساعدات من حركة القوميين العرب، والسعودية، ومصر، والعراق.

وفي إبريل ١٩٦٥ أصيبت الحركة بنكسة خطيرة عندما ألقي القبض على أربعة من أعضائها في مدن مختلفة في ظفار، وقد حاد ذلك من قوتها. ونتيجة لذلك عقدت الحركة مؤتمراً الأول في أول يونيو ١٩٦٥ في خميرين، في الوادي الكبير بوسط ظفار، لمناقشة وسائل النهوض بتنظيم الحركة، ولذلك تم انتخاب لجنة تنفيذية من ١٨ عضواً، أيدت مبادئ الكفاح المسلح وأصدرت بيانها الأول بعدما الصدد في ٩ يونيو ١٩٦٥.

وقد ندد البيان بنظام حكم السلطان سعيد بن تيمور ، وناشد جميع الظناريين الانضواء إلى التمرد ، وأصدر المؤتمر بياناً سياسياً يتضمن التالي :

(أ) ان الطبقات الفقيرة والفلاحين ، والعمال ، والجنود ، والمثقفين الثوريين سوف يشككون العمود الفقري للمنظمة .

(ب) سوف يتم تدمير الوجود الاستعماري بكافة صورته - العسكرية والاقتصادية والسياسية .

(ج) وسوف يتم تدمير نظام الحكم المأجور للسلطان سعيد بن تيمور .

وأصبح الهدف الرئيسي للحركة من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٧ إقامة ودعم وجودها في ظفار . وقامت بتقسيم المنطقة إلى ثلاثة أجزاء - شرق وغرب ووسط ، وجندت المتطوعين على أسس فردية . لكن عملياتها العسكرية كانت متقطعة ، واقتصرت على التخريب والقنص ، والكمانن المواقع الحكومية ، على السهل ، خاصة في طاقة ومرباط ، وعلى طول طريق صلالة - ثمريت . وكانت أبرز عملياتها في تلك الفترة هي محاولة اغتيال السلطان في ٢٦ أبريل ١٩٦٦ ، وقد قام بها جنود ظفار يون متعاطفون مع الحركة ، ولكن الحركة عادت إلى موقع الدفاع في أوائل ١٩٦٧ ، فقد واجهت نقص التمويل بعد أن قطعت السعودية مساعدتها عنها .

وتباطأت عملياتها بسبب نقص السلاح ، وأيضاً بسبب زيادة الضغط من قوات السلطان ، وتشتت قواتها

وفي ديسمبر ١٩٦٧ ، وبعد أن حصلت عدن على استقلالها - فإن جبهة تحرير ظفار تلقت دفعه هائلة من المساعدات من الدول الاشتراكية من خلال نظام الحكم في عدن .

وعقدت جبهة تحرير ظفار مؤتمرها الثاني في حمرين بوسط ظفار في سبتمبر ١٩٦٨ ، بهدف تجميع نطاق عملياتها وتنسيق نشاطات جميع مجسوعات التمرد المتفرقة في المنطقة .

وقرر المؤتمر أن تتخذ الحركة استراتيجية « العنف الثوري المنظمة » ، ومبدأ « الاشتراكية العلمية » . وكان هذا القرار يعنى بداية محاولة تصعيد التمرد القبلى المحلى إلى حركة أيديولوجية وراها تأييد جماهيرى فى أنحاء الخليج . وتضمن ذلك تغيير اسم الحركة من جبهة تحرير ظفار إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل .

ولم يرض قرار اتخاذ خط أكثر تطرفا بعض الزعماء الأصليين للجبهة مثل مسلم بن نوفلى الذى قاد منظمة الشباب العربى الظفارى ، ويوسف العلوى قائد الجمعية الخيرية الظفارية ، ولذلك تركوا الحركة . وقام المؤتمر الذى حضره ٦٥ عضوا ، بتشكيل قيادة عامة جديدة من ٢٥ عضوا ، منهم محمد أحمد الغسانى سكرتيرها لها . وبذلك حلت اللجنة القديمة المكونة من ١٨ عضوا ، والى شكلت عام ١٩٦٥ ، واختير من أعضائها الثمانية عشر ثلاثة فقط كأعضاء فى اللجنة الجديدة ،

وجدير بالذكر أنه رغم أن السيد سعيد بن تيجور قد نجح إلى حد ما فى تقويض النظام القبلى فى ظفار عن طريق مناورات عديدة ، إلا أن القبلىة ظلت مشكلة ، بما صاحبها من نزاعات حول حقوق الأرض والمياه وغيرها بين سكان الجبال ، ولذلك تركزت دعاية الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل خلال تلك الفترة على الجهود لإنشاء نظام الملكية الجماعية للأرض ، واللجان الزراعية والمزارع النموذجية ، كما زعمت أنها حلت النزاعات القبلىة عن طريق إنشاء لجنة لحل المشكلات الشعبية . لكن الحقيقة المرة أن كثيرين من رجال القبائل الذين رفضوا التعامل معها قد قتلوا . . . والأكثر مدعاة للسخرية ، أن مندوبى الجبهة كانوا يفرضون الطاعة عليهم عن طريق تطبيق عقوبات اقتصادية . وعلى سبيل المثال فإن الجبهة استولت على الماشية التى تعتبر الأساس الاقتصادى لسكان الجبال كى ينضع أصحابها . وقد دخلت الحركة مرحلتها الجديدة بالتخلى

هن وصعها الأصلي للثورة القباية وانماح لخط أكبر تطرفا للرفاق ، وبإقامة اتصالات مع منظمات سياسية دولية ، وبخاصة تلك المهتمة بمنطقة الخليج ، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وتدفقت المساعدات المالية والعسكرية على الجبهة من الصين وكوريا الشمالية ومن الاتحاد السوفيتي ، فضلا عن المساعدات التي كانت تحصل عليها من اليمن الجنوبي ، وبذلك أصبحت الحركة مرتبطة تماما بالسياسة الماركسية اللينينية التي ضاعفت بشكل أسامي من خطوات التمرد العسكري في ظفار .

وفي نفس الوقت كانت هناك عدة تنظيمات سياسية أخرى في شمالي عمان ، ومن أكثرها نشاطا ، وهي : الحركة الثورية الشعبية في عمان والخليج العربي - الطليعة الثورية لطلبة عمان والخليج العربي - منظمة الجند الوطنيين في عمان . . وقد اندمجت كل تلك هذه المنظمات في يونيو ١٩٧٠ وكونت جبهة جديدة سميت الجبهة الوطنية الديمقراطية لتحرير عمان والخليج العربي ، وقد أيدت العراق هذه الجبهة الجديدة ، التي زعمت بأنها جزء من حركة التحرير الوطني العالمية في آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية . . وقد تألف أعضاؤها من بين الشباب العماني الذين تعلموا في الخارج وتأثروا بالأيديولوجيات والأفكار القومية ، والمعلمين والفنيين ، والمفكرين ، والمعلمين العمانيين القدامى المعادين للسلطان ، وكانت هذه الجبهة مقسمة إلى مجموعتين رئيسيتين ، كل منها من ٣٠ عضواً تعمل إحداها في الجبل الأخضر ، وتعمل الأخرى في الشرقية ، ويقع الجبل الأخضر في المنطقة الجبلية شمال غرب مسقط ، بينما تحتل الشرقية المنطقة الجبلية جنوب شرق مسقط ، وكانت هناك مجموعة تحريب صغيرة ، قاعدتها في صور ، وقد تلقى أعضاء هذه الجبهة تدريباً على حرب العصابات في العراق واليمن الجنوبي والصين ، وفي مخيمات اللاجئين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، قرب عمان بالأردن .

وقد شنت الجبهة الوطنية الديمقراطية لتحرير عمان والخليج العربي هجمات على مدن الداخل ، مثل لاذكى ونزوى في ١٢ يونيو ١٩٧٠ ، وفي إحدى الهجمات التي فشلت اعتقلت مجموعة من تسعة رجال ، أربعة منهم أعضاء في اللجنة المركزية للجبهة ، ثم أعقبت ذلك اعتقالات أخرى وبخاصة بين الكوادر الرئيسية التي تم اعتقال أفرادها في مطرح يوم ١٨ يوليو ١٩٧٠ ، وقد أدى هذا إلى إلحاق ضرر بالغ بعمليات الجبهة في المدن وإلى فشلها في فتح جبهة شمالية ، وهو ما نتجت عنه أزمة داخل الجبهة حول الاستراتيجية والتكتيكات ، وقد زادهذا التفكير في الجبهة سوءا في ١٠ أكتوبر ، عندما بدأت ثورة مضادة في الجزء الشرقي من الجبل احتجاجا على تصرفات معينة ، منها التعذيب والإعدام ، ومن ثم بدأت عمليات انشقاق عن الحركة . .

وفي منتصف عام ١٩٧٠ ، وهو العام الذي تدهورت فيه الأمور للنوار في الشمال كان الوضع في الجنوب يتحسن بشكل ملحوظ لصالح الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل ، فقد سيطرت على الجبال ، بينما اقتصر وجود قوات السلطان على السهل الساحلي والمواقع المعزولة في قمم الجبال ، وفي ٢٣ يوليو ١٩٧٠ خلف جلالة السلطان قابوس والده بعد انقلاب سلمني وقع في قصره بصلالة ، وكان هذا التغيير البداية التاريخية لتركيز الحكومة طاقاتها بشكل فعال لمواجهة التمزد والعمل على تحقيق التنمية . .

لقد جرت محاولة عارضة الإحياء جبهة الشمال أثناء نزاع عمالي في مسقط في سبتمبر سنة ١٩٧١ ، وكان قائدها عضو معروف في الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل ، وهو محمد سالم المعشني ، الذي كان يدبر مؤامرات أخرى في مسقط ومطرح ، وقد اكتشفت المؤامرة ، وقضى عليها في الحال ، واعتقل قائدها . . أما الذين اشتركوا في الاجتماع فلم تكن لديهم أدنى فكرة عما جرى تدبيره ، وكان البعض يصبح مطالباً بأجر أفضل وظروف عمل

أفضل ، وعندما حصلوا على تأكيد بأن مطالبهم ستكون موضع الدراسة فإنهم أمروا اجتماعهم بالفتاح لحياة السلطان .

وفي يونيو ١٩٧٠ أثناء المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل في رخيوت ، غروب ظفار ، أصدرت الجبهة برنامجا من ٢٩ نقطة ، تنص على أن النضال الطويل والعنيد هو الطريق الوحيد لتحرير الخليج ، ولكنهم لم تتابعوا وسائل أخرى للنضال في مناطق المدن والريف .

وفي ديسمبر ١٩٧١ ضمت الجبهة المؤسسة ، وهي الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل حركة أخرى هي الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي ، ونشأت جهة جديدة تسمى الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي .

وعند هذه النقطة كان النضال السيامي يسير متعثرا فكان لا بد من نصر عسكري لرفع المعنويات .

وفي ١٩ يوليو ١٩٧٢ حشدت هذه الجبهة الحديدية مائة رجل لشن هجوم على مرياط في الطرف الشرقي لسهل ظفا - الساحلي وكان هذا الهجوم كارثة للتمرديين الذين لقنوا درسا رادعا ، كان في انتظارهم ، فقد قتلوا سبعين قتيلًا . وقد أثر ذلك الفشل على الحماة العسكرية ، لأن التمرديين أرغموا على التقهقر إلى الجبال والأنسحاب نحو حدود اليمن الجنوبية ، وهو ما جعل هذه الجبهة تصبح في موقف الدفاع . وأرغمت أحداث مرياط الجبهة على محاولة تخفيف الضغط في الجنوبين بإحياء الجبهة الشمالية .

وفي نوفمبر ١٩٧٢ شأهد أحد المشفقين عضوا كبيرا من الجبهة هو محمد ابن طالب في مطرح فوضعت لذلك قوات الأمن في حالة تأهب ، وبعد ٦ أسابيع من المراقبة شنت الحكومة عملية شاملة في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢ بإقتضاء على شبكة التخريب . وقد تمت العملية في خمسة أيام ، تم خلالها

اعتقال ثمانين شخصا ، منهم ثمانى نساء ، ومن بين الأسلحة المخبأة التي حُر عليها بنادق أوتوماتيكية (كلاشينكوف) وبنادق نصف أوتوماتيكية ، ومدافع مورتار ٦٠ م.م وبنادق ، مسدسات وألغام مضادة للدبابات ، وكانت هذه الأسلحة قد شحنت عن طريق صومال التي كانت نقطة تقليدية لتدريب الأسلحة ، وفي نفس الوقت الذي تمت فيه تلك الاعتقالات جرت عملية مشابهة في الإمارات العربية المتحدة ، حيث كان يجري مراقبة نشاط الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتمل ، ونجحت العمليتان في كبح محاولة ثورة مسلحة في الشمال ، وأقيمت في يونيو ١٩٧٣ محاكمة ستة وسبعين شخصا ، منهم الذين اعتقلوا خلال عملية الخمسة أيام التي بدأت في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢ ، وقد حكم على أحد عشر منهم بالإعدام ، وعلى الآخرين بالسجن لمدة تراوح ما بين ستة شهور ومدى الحياة . . وكانت إحسانى السيدات التي حكم عليها بالسجن ستة شهور حاملا ، ولذلك أطلق سراحها بعد ثلاثة شهور . . . وبعد أن ضربت الجبهة للمرة الثانية في الشمال فإنها كانت أيضا في موقف دفاعي في الإقليم الجنوبي ظفار .

وفي عام ١٩٧٤ أصيب المتمردون بضعف خطير بسبب الانشقاقات في صفوفهم وبسبب تواجد قوات السلطان المسلحة وقيام مشروعات التنمية الحكومية في المناطق الجنوبية .

وفي يناير ١٩٧٤ عقدت الجبهة مؤتمرها الرابع الطارىء ولكنها فشلت في الانسحاق على سياسة عاجلة وقامت في الصيف بعمل إعادة تقييم لاستراتيجيتها ، وفي ٩ أغسطس أعلن صوت عمان من مقره في عدن ، أن الجبهة أعادت تغيير اسمها إلى الجبهة الشعبية لتحرير عمان ، وقد حولت الاستراتيجية الجديدة التركيز من النضال العسكرى إلى النضال السياسى ، وأوضحت أن أداتها الرئيسية ستكون الجبهة القومية المتحدة ، وأن الثورة في عمان يجب أن تكون ثورة مسلحة ، وأن استفيد من العنف الثورى للجماهير للقضاء على عنف الاستعمارين الغزاة وعملاتهم المحليين ، وذكرت أن نضال الجماهير العمانية يجب أن يستخدم

تل وسائل النضال في نفس الوقت ، وأن صور النضال الأخرى يمكن تطبيقها في إطار النضال المسلح :

وقد جاء هذا التغيير عقب تقرير منشأتم قدم في المؤتمر الرابع حول المعدل الكبير للانشغافات من الجهة والانضمام إلى جانب الحكومة ونقص الإمدادات وسوء المواصلات . . وأصر مندوبو الجهة من البحرين وقطر والكويت بتغيير حاسم في سياستها مع التركيز على جهود تهجين الشباب المثقف الذين لم تجلبهم الخدمة العسكرية . . وقد تردد أن فكرة تغيير اسم الجهة جاء بناء على نصيحة بعض الحكومات ، على أمل أن استبعاد دول الخليج سيشرح دول المنطقة على الاعتراف بها وبذلك ينحصر التهديد في عمان وحدها . . وقد أثمر هذا العمل لبعض الوقت في دول مالت إلى الاعتقاد بأن التهديد الشيوعي هو مشكلة عمانية بحتة ، وخضت الطرف عن حقيقة أنه إذا سقطت عمان ضحية للشيرعين فلن تبقى هذه الدول آمنة بعد ذلك . . ومع ذلك فإنها سرعان ما أيقنت هذا الخطر وبدأت التعاون مع عمان أو على الأقل في تقديم مساعدات أدبية لها :

ولقد أجبر الأعضاء الظفاريون في اللجنة المركزية على ضرورة مواصلة النضال المسلح وأدى التلايف إلى ترك الجهة بدون قيادة فعالة في الفترة بين يناير وأغسطس ١٩٧٤ ، وكذلك فإن تدهور الظروف الاقتصادية في اليمن الجنوبية قد أرغمها على تركيز النظر في شؤونها عن إشعال الثورة في الدول المجاورة :

على أن النتائج العملية لمداولات ١٩٧٤ استوجبت أو يكون للقيادة الإقليمية للجبهة مزيد من السلطة وحرية التصرف ، وكان هذا يعني أن الوحدات العسكرية التي كانت ما تزال موجودة في ظفار يجب أن تنزك لها حرية التصرف حسب ما تراه . . وقد علم أن العراق عرضت أن تتولى تنظيم النشاطات التخريبية بدلا من اليمن الجنوبي في الخليج ،

ويعود هذا الموقف إلى التنافس بين العراق وبين إيران وليس لقدرات العراق على إشعال ورعاية ثورة دائمة في المنطقة .

وبعد وقت قصير من إعلان الاستراتيجية الجديدة أصبحت شمال عمان للمرة الثالثة خلال أربع سنوات ميدانا للتخريب والثورة .
ففي ٢٩ أكتوبر ١٩٧٤ أوقفت سيارة لاندروفر عند محطة تفتيش عسكرية على الطريق قرب الرستاق ، فقام قائد المجموعة التي تستقل السيارة بفتح النيران ، وقتل أحد الجنود وجرى تبادل لإطلاق النيران قتل خلاله قائد المجموعة زاهر علي مطر الميمني (المعروف بأسم أحمد علي) وكان عضواً في اللجنة المركزية للجيبة . ووجد الأعضاء الأربعة الآخرون في السيارة ، ومنهم عضو آخر في اللجنة المركزية ، أنفسهم في مأزق إذ كانوا يحملون كمية كبيرة من النقود والأسلحة والمتفجرات ، وكان واضحاً أن المجموعة تنوى القيام ببعض الاغتيالات ، وقد تلقت المجموعة تدريبها في مخيم للاجئين قرب بيروت تابع للجيبة الشعبية لتحرير فلسطين ، وعقب هذا الحادث اعتقل عدد من الأشخاص بعضهم يشغل مراكز مسؤولة في مكاتب الحكومة والبوليس ووزارة الخارجية والجمارك والأعلام ، وكان نجاحهم في التسلل إلى الوظائف الحكومية مصدر إزعاج .

وإذا كان مؤتمر حميرين يمثل بداية النضال التخريبي المسلح للمتمردين فإن تولى السلطان قابوس للحكم يمثل بداية سقوطهم ، فمن البداية كان هناك قوات السلطان المساخة هو قطع خطوط الامدادات عن المتمردين وتعقبهم والقضاء عليهم في ... وحتى عام ١٩٧٠ قبل أن يخلف السلطان قابوس والده كانت محاولات قوات السلطان المسلحة تجاه نشاط الجبهة متعثرة ، وكان سهل صلالة الساحلي هو المنطقة الوحيدة الخاضعة للحكومة ، بينما كانت المواقع الموجودة في السهل عرضة للهجمات التي تقوم بها الجبهة من مناطق مرتفعة مستخدمة مدافع الهازن ونيران الصواريخ . . . غير أن الوضع أخذ يتحول تدريجياً إلى صالح قوات السلطان المسلحة بعد تولى السلطان قابوس للحكم في يوليو

١٩٧٠ ، وهو ما أعطى التحرك السياسي قوة في مواجهة التمرد ، وتضاعفت عملية قصف السهل لزاء تقوية المواقع الدفاعية لقوات السلطان المسلحة وهو مادفع المتمردين نحو الجبل .

وقد سارت الحرب حتى عام ١٩٧٢ حسب الدورات الموسمية ففي فصول الرياح الموسمية تحتق الجبهة تقدما على قوات السلطان المسلحة عندما تكون الجبال مغطاة بالضباب ويصبح من الصعب على قوات الحكومة تعقب المتمردين . . بينما تستطيع قوات السلطان المسلحة التي تعمل أساسا من خلال الغارات الجوية أن ترغم المتمردين على التزام الدفاع أثناء المواسم الجافة . . وبالنسبة لقوات السلطان المسلحة فإن الإحتلال الموسمي للأرض كان مسألة تعتمد على الإمدادات التي كانت غير كافية حتى عام ١٩٧٢ ، ولم يكن الموقف مشجعا لكثير من أهالي الجبال بسبب استمرار أعمال الإرهاب التي تقوم بها الجبهة . وكانت أقوى نقطة في سميا وتعرف رسميا بأسم سرفيت وقد أقيمت في أبريل - مايو ١٩٧٢ على الحدود بين عمان وبين اليمن الجنوبي ، وقد تلقت ١٢ ألف طلقة خلال عام ١٩٧٢ - ١٩٧٣ من المدفعية من القوات النظامية لليمن الجنوبية ولكن قوات السلطان المسلحة لم يسمح لها بإطلاق النار إلى داخل اليمن الجنوبية ، استناداً إلى أن سياسة السلطان تقضي بحسم التدخل في الشؤون الداخلية للأخريين والعمل على إقامة علاقات حسن جوار معها . .

وقد تغير الموقف عام ١٩٧٤ فقد أصبح التفوق غالباً لقوات السلطان المسلحة ، ولم تقع هجمات منظمة بإستثناء القصف الموسمي طويل المدى لعدة شهور من جانب الجبهة . . وكانت قوات السلطان المسلحة قد نقلت المعركة للعديو في صيف ١٩٧٣ وبقيت في الجبل خلال فترة الأمطار الموسمية وأقيم حاجز كثيف من الأسلاك الشائكة فيما بين أواخر ١٩٧٣ ويونيو ١٩٧٤ وطواه ٢٥ ميلا ويمتد من مغسيل في الغرب إلى جزيرة صلالة ، وكان الخط مانعاً . . وقد أدت تلك العملية إلى وقف الإمدادات التي تأتي بها الجمال من اليمن الجنوبي إلى وحدات الجبهة شرق الخط ، وقبل إقامة الخط الحاجز كان

ما بين ٦٠ ، ٧٠ جملا تأتي من اليمن الجنوبية محملة بالأسلحة للمتتمردين ولكن منذ أواخر ١٩٧٣ لم تستطع أى قافلة جمال الوصول إلى هناك :
وبذلك أصبح المتمردون فى القطاعات الوسطى والشرقية معزولين ومحرومين من الإمدادات .

وقد تم اختيار موقع الخط بعناية ، فهو يقع عند الحافة الغربية لإحدى مراحى المشية وهو أكثر سمكا فى الجنوب عنه فى الشمال ، لأن طرق الإمدادات متعددة فى الجنوب = . وبذلك أتجهت الجبهة بطرق إمداداتها شمالا عبر مناطق مفتوحة وأقل تقبلا لها .

ومن قواعد هذا الخط أخذت قوات السلطات المسلحة تقوم بدوريات يومية وينصب كمان ليلىة ، ونادراً ما كانت الدوريات تبعد أكثر من ميل ونصف ميل عن قواعدها ، ولم تكن هناك هجمات قوية للجبهة فى المنطقة لمدة سنتين .

وكلما اكتشفت قوات السلطان المسلحة ثغرة فى الخط فلنما تتعقب الذين قاموا بها باستخدام فرق مكافحة حرب العصابات والحلاصة أن الخط قد ساعد على تقليص طرق الإمدادات من الناحية الشرقية والغربية وأدى إلى إنهاء قوات الجبهة فى المنطقتين الوسطى والشرقية ، وتحرك المواقع الدفاعية نحو حدود اليمن الجنوبية .

ويعتبر الجبل الشرقى موقعا هاما لعمان بسبب كثافة السكان ووفرة المشية ، ولقد كان هناك تركيز للعناصر المقاتلة من الجبهة فى تلك المنطقة ، وبسبب الظروف الحرجة للمتتمردين فى القطاع الشرقى فقد أخذت الهجمات العسكرية لقوات السلطان المسلحة تنحو نحو تحقيق سياسة ذات شقين ، أحدهما للتهدئة ، والثانى للتنمية .

وقد ترتب على اتباع الاستراتيجية الهجومية لقوات السلطان المساحة وإنشاء ذلك الخط تحقيق إنجاز عسكري هام ، وهو فتح الطريق الأوسط فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ ، وهو الطريق الممتد من صلالة إلى ثمرت

في الوسط ، وهو الطريق البري الوحيد بين مسقط وصلالة ، وكانت الجبهة قد ظلت لعدة سنوات تسيطر على هذا الطريق من خلال الجبل ، حتى إنه كان يوصف بالخط الأحمر للجبهة :

وتلبية لطلب من جلالة السلطان قابوس أرسلت الحكومة الإيرانية قوة تتكون من ١٢٠٠ رجل ظلت هناك حتى نوفمبر / ديسمبر ١٩٧٣ . وفي ليلة ١٩ ديسمبر ١٩٧٣ احتلت هذه القوة الطريق من الشمال والجنوب ، ولم تحدث مقاومة تذكر ، باستثناء طلقات متقطعة وعمليات قناصة ، وظل الإيرانيون يرابطون في خمسة عشر موقعا على امتداد الطريق حتى وصول قوات السلطان ، وقد غادر الجيش الإيراني عمان في ١٠ أكتوبر ١٩٧٤ ، ولكن حل محله غيره في نهاية العام .

وقد أحدثت وصول القوات الإيرانية إلى عمان بعض الاستياء وعدم الارتياح بين بعض الدول الشقيقة التي اتهمت حكومة عمان باستخدام دول أجنبية لسحق أخوة عرب . كما اتهمت إيران بالتدخل في الشؤون الداخلية لدولة مجاورة . ولكن عمان وإيران كانت لهما أسبابهما المقبولة والمشروعة للقيام بهذا العمل المشترك ، لوقف التسلسل الشيوعي إلى المنطقة .

وقد شرحت حكومة عمان وجهة نظرها لجميع الدول الشقيقة وأشارت إلى خطر التسلسل الشيوعي ليس على عمان وحدها ، ولكن على منطقة الخليج بأكملها . وبذلك أكدت الحاجة لعمل مشترك لوقف ذلك الخطر . لكن النداء لقي آذانا صماء من بعض الدول التي اعتبرت الموضوع مشكلة عمانية محضة ، وقد تركت لعمان وحدها مواجهته بتجاهل ما قد يحدث لها إذا ما سيطرت الشيوعية على المنطقة ،

ولقد اعتبرت إيران دولة أجنبية في نظر العرب ، رغم أنها دولة خليجية فضلا عن أنها مسلمة . لكن عمان التي لم تتجاهل هذه الحقيقة ،

ظلمت مساعدة إيران باعتبارها دولة إسلامية قوية : وجارة لها وتواجه خطراً مماثلاً .

وفي أول يناير ١٩٧٥ قامت القوات الإيرانية بهجوم على رخيوت وتوئدها قوات السلطان المسلحة واشتبكت مع مائتين من المقاتلين الأقوياء التابعين للجبهة غرب المدينة . ولحققت الجانبين خسائر فادحة ولكن نتيجة المعركة كانت السيطرة الكاملة على الطريق الأوسط وقد رابطت على الخط وحدات من الجندرية العمانية ، بمعونة إضافية من فرق المتطوعين .

وبذلك فإن التدخل الإيراني قد أنقذ منطقة الخليج كلها من السقوط في أيدي الشيوعية . ولاشك أن فتح الطريق الأوسط قد رفع من الروح المعنوية لأهالي صلالة، وكانت له آثار هامة على فتح الجبل ومساعدته الإدارة المدنية ،

ونتيجة لتلك العمليات عزلت وحدات الجبهة في وسط وشرق ظفار ، وتحول دور قوات السلطان المسلحة من مطاردة العدو وتدميره إلى التنمية المدنية ،

وقد أدت هذه السياسة إلى نتائج حاسمة في الوسط والشرق ، وأصبح معدل الانشقاق عن الجبهة والإستسلام للحكومة من أفرادها عالياً ، وخلال الفترة من أكتوبر ١٩٧٠ إلى نهاية ١٩٧٤ وصل عدد الذين استسلموا لقوات الحكومة إلى ألف شخص ، والذين قتلوا إلى ٤٣٣ شخصا .

وعندما تحركت الحكومة إلى المناطق التي كانت تخضع من قبل للجبهة ، فإن التركيز زاد على التهدئة على يد فرق عمل مدنية . وفي المناطق التي تتوافر بها آبار المياه ، أقامت قوات السلطان المسلحة قواعد ومراكز لها . وشملت مثل هذه المراكز : مدرسة وعيادة ، كل ذلك داخل أحجز دفاعي تحرسه فرق المتطوعين ، وكانت هذه المراكز هامة لأهالي الجبل ، لأنها كانت تمثل الوجود الفعلي للحكومة في مناطق

لم يكن لها بها وجود في الماضي . وفي نوفمبر ١٩٧٤ تم حفر أحد
حشربثراً ،

ومع تقدم عملية تهديم المنطقة ، زادت أهمية التنمية الاقتصادية
للجبل ، وكان ذلك يعني تحسين وزيادة سلامة الماشية ، والأرض المزروعة
بالحشائش لرعى الحيوانات ، وبدأت إدارة تنمية ظفار باستخدام سلامة
من الأبقار وأنواع من المحاصيل بهدف ربط اقتصاد الجبل باقتصاد سهل
صلالة . وكانت الخطة طويلة الأجل تستهدف جعل ظفار مصدراً رئيسياً
للأبقار .

وكان من الممكن تنفيذ خطة التهديم بسهولة من خلال تعاون قوات
السلطان المسلحة مع قوات مكافحة حرب العصابات المعروفة باسم الفرق
القومية .

وقد تكونت هذه القوات من المتمردين السابقين ، وعملت كنوع من
اليوليس القبلي . وكانت وحداتها تعمل في المناطق القبلية ، وكانت
مشغولة عن حماية تلك المناطق من نشاط المتمردين . وتتراوح عدد كل
فرقة منهم ما بين خمسين شخصاً في المناطق التي تم تطهيرها ، ومائة
وخمسين في المناطق التي مازال يوجد بها متوردون ، وقد أجادوا أداء
عملهم وأصبح معروفاً عنهم ، أنهم الوسيلة الوحيدة الممكنة لحفظ
القانون والنظام في الجبل .

وبعد أن تم توفير الأمن في طريق صلالة - ثمريت أصبح الهدف
الرئيسي لقوات السلطان المسلحة هو استئصال جيوب المقاومة الباقية في
القطاعات الوسطى والشرقية من الجبل . وكانت المشكلة العاجلة هي
جشك أقصى قدر من القوة التي تستخدم المركبات ، طالما كان المتمردون
يتقادون الدخول في معارك مع قوات حكومية متقدمة عليهم ،

وقد خفف العبء عن بعض وحدات قوات السلطان المسلحة ، عندما

وصلت قوات أردنية في ربيع ١٩٧٥ لتولى مهمة تأمين طريق صلاحية -
ثمرية .

ثم بدأت فترة وجهت خلالها قوات السلطان المسلحة والفرق صربان
قاتلة ضد قوات التمرد خاصة في المناطق التي طالما وصفوها « بالمحمدة »
ويعد أبرزها تلك العملية التي نفذت في منطقة وادي الشوك ، والتي تم خلالها
اكتساح مقر القيادة الرئيسي للشيوخين المعروف باسم « كتيبة ٩ يونيو »
والاستيلاء على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمعدات ، ولأول
مرة ، استخدمت القوات العمانية طائرات الهليكوبتر بقوة متزايدة لتقل
الرجال بسرعة إلى العمليات .

واستمر العمل بهذا الأسلوب منذ بداية العام وحتى حلول فصل
الأمطار الموسمية ، الذي يحد من النشاط الجوى وغيره من النشاطات في
منطقة الجبل . ولم تتح للعدو أدنى فرصة للراحة ، وظلت إمداداتهم معرضة
للضرب والاستيلاء عليها . ومن الجدير بالذكر أنه خلال العملية التي
جرت في وادي الشوك كانت تلتقط رسائل إذاعية من راديو المتمردين
تشكو من الجوع قبل أي شيء آخر ، وهكذا تضاعفت مساحات الأرض التي
يقف عليها المتمردون في المناطق الشرقية والوسطى ، سواء من حيث
العدد أو الفاعلية .

وفي ١٥ أكتوبر ١٩٧٥ تحركت وحدات الهجوم التابعة لقوات
السلطان المسلحة من صرفيت زاحفة جنوبا إلى الساحل ، وفي اليوم الثاني
وصلت إليها التعزيزات من وحدات أخرى ، وقد نجحت من خلال سيرها
ليليا في السيطرة على جميع طرق إمدادات العدو في المنطقة ،

وفي ١٧ أكتوبر تم تعزيز تلك الوحدات بالمدفعية في صرفيت وقامت
بمهاجمة موقع العدو في حوف باليمن الجنوبية ، ودمرت مواقعها العسكرية
ومدفعيته .. وولجا المتمردون عندئذ إلى قرية ضلكوت التي كانت آنحز
مكان يلبجأون إليه قبل إنزال الهزيمة الكاملة بهم .

وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٧٥ بدأت عمليات التطهير ضد المتمردين على الجانب الغربي .. للعجل . واستولت قوات الفرق الوطنية على كميات كبيرة من الأسلحة والمتخيرة .. من المتمردين خلال تلك العمليات التي حققت نجاحا كاملا .

ثم جاء اليوم الكبير ، ففي الساعة التاسعة والدقيقة السادسة والثلاثين من صباح يوم الإثنين أول ديسمبر ١٩٧٥ .. وبعد أن تم اكتساح الإهابيين الماركسيين تماما .. من غربي ظفار ، وجهت قوات السلطان المسلحة ضربة نهائية كاسحة لآخر معاقل العدو في منطقة ضلكوت الساحلية ، وبذلك جاءت نهاية آخر موقع حصين للمتمردين ، وأصدرت القيادة العامة لقوات السلطان المسلحة بيانا عسكريا يعلن :

« حققت قوات السلطان المسلحة والقوات غير النظامية انتصارا حاسما ، وقضت على عصاية الماركسيين الإرهابيين في المنطقة الغربية من ظفار .. وهي الآن تفرض سيطرتها الكاملة على كل شبر من الأرض في هذه المنطقة المتاخمة لحدودنا مع اليمن الجنوبية .. وإن قوات السلطان المسلحة التي رفعت أعلام النصر فوق جبال ظفار قد أبلغت الأنبياء السعيدة بنصرها إلى قائدها الأعلى جلالة السلطان قابوس .. وتنهز هذه الفرصة لتجديد عهدنا بجلالة السلطان قابوس بالدفاع عن الأرض العمانية ، وحماية المكاسب التي حققتها الشعب العماني تحت قيادته الحكيمة .. وإن قوات السلطان المسلحة والفرق القومية منهيء الشعب العماني بأكمله بهذا النصر الحاسم .. الذي كان يتطلع إليه منذ وقت طويل ، والذي ناضل من أجله بكل قواته في مواجهة الوسائل الإرهابية والعصابات الماركسية التي تؤيدها الحركة الشيوعية العالمية ، وإن قوات السلطان المسلحة والفرق القومية تؤمن بأن هذا النصر سوف يدفع عجلة التنمية إلى الأمام ، وأن آثاره سوف تنعكس بوضوح على مختلف مجالات التنمية والتقدم .. التي تشهدها السلطنة في عصر ازدهارها الحاضر .. وسوف تظل قواتنا المسلحة الداسلة الدرع (م ١٠ - عمان وثرفق أمريقية)

اللى يحمى بلادنا ، ويردع أى محاولة من الحيوپ الشيوعية ضد بلادنا الحبيبة » :

وقد سئل جلالة السلطان قابوس من مراسلى صحيفتى صنداي تايمز الانجليزية ، وواشنطن بوست الامريكية فى ١٦ يناير ١٩٧٦ ، عما إذا كان يرى أن هالك احبالا فى عودة المحاولات الشيوعية للتسلل من جديد إلى عمان .

فأجاب « بأنه لا يوجد أى احتمال من ذلك على الإطلاق . : فالذين انضموا إلى المتمردين يدركون الآن أن السلطنة توفر كل فرصة للتقدم والرشاء للشعب العماني وأنهم جميعاً قد عادو بالنالى ليقوموا بدورهم فى بناء بلادهم رافضين محاولات النفوذ الأجنبي لدفعهم لمواصلة إثارة المتاعب » .

وقبما يتعلق ببقاء قوات إيرانية بعد أن انتهت الحرب قال جلالاته « إنهم يحاقون بسبب الموقف العدائى من اليمن الجنوبية ، وأوضح جلالاته للصحفيين بأن هناك عددا كبيرا من الكوبيين، والألمان الشرقيين فى القوات المسلحة لليمن الجنوبية وقوات الأمن فيها » .

وفى يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٥ زحف موكب ضخم يضم مائة ألف شخص من روى لتحية جلالة السلطان قابوس فى استاد القرم وألقى جلالاته خطابا فى جموع الحاضرين الذين كانوا يهتفون ويرقصون خلال مسيرتهم ويهتفون « عاش السلطان ، وعاشت قوات السلطان المسلحة » احتفالا بالنصر الذى حققته قوات السلطان المسلحة فى المنطقة الجنوبية وطهرت به البلاد من المتسللين الشيوعيين :

وقد خلقت هذه المسيرة مشهداً لم تره عمان ، لقد كان موكبا جماهيريا اشترك فيه الجميع من كل أبناء الشعب ، وقد أظهر فيه الشعب فرحته بنصر قوات السلطان المسلحة على العدو فى أول ديسمبر ١٩٧٥ وبعد ذلك تم إعلان يوم ١١ ديسمبر رسماً كيوم للجيش .

وساطة الدول الشقيقة

جرت محاولات غير ناجحة للتوفيق بين عمان واليمن الجنوبية وكان جلالة السلطان قابوس يرجب دائماً بأية مبادرة من أى وسيط لتسوية الخلاف مع اليمن الجنوبية انطلاقاً من سياسة حكومته الخاصة بإقامة علاقات أخوية طيبة مع الدول المجاورة ، وبعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة .

وفي عام ١٩٧٣ قامت الكويت بمحاولة لإقناع اليمن الجنوبية بالتخلي عن تأييدها للجهة الشعبية لتحرير عمان ولكن المفاوضات تعثرت وفي مايو ١٩٧٤ رار وفد من أحد عشر عضواً من الجامعة العربية عمان . وكان هذا الوفد يضم ممثلين من الجزائر وتونس وسوريا والكويت وليبيا ومصر ، ويرأسه الأمين العام للجامعة العربية . ولم يسمح للوفد بزيارة عدن وقبل ذلك بعدة أسابيع بدأ أعضاء الجهة الشعبية لتحرير عمان حملة دعائية ، حيث أوفدوا وفداً يضم محمد عبد الله حسين (اللجنة المركزية) وعيسى عبد الله (العلاقات الخارجية) لزيارة بغداد ودمشق والقاهرة والجامعة العربية ، كما قابل الوفد قادة الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت .

وأخذت المملكة العربية السعودية المبادرة في السبعينات لإقناع اليمن الجنوبية بوقف تأييدها للجهة وبدأ أن الأمور تتجه اتجاهها طيباً ، ولكن المراقبين فوجئوا برئيس وفد اليمن الجنوبية في مؤتمر قمة عدم الانحياز في كوالومبو ، في أغسطس ١٩٧٦ يعلن بوضوح ، أن حكومته لا يمكن تحت أى ظرف من الظروف أن تكون على وفاق مع عمان ، وأنها ستواصل "تأييد أي حركة تعمل ضد حكومة عمان" ثم كرر نفس

الشخص هذا التصريح في الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الحادية والثلاثين في نيويورك ، وفي نوفمبر عام ١٩٧٦ أعلن وزير خارجية اليمن الجنوبية في باريس أن علاقات حكومته مع السعودية ليست لها علاقة بموقفها ضد عمان ، ثم أعيد تأكيد موقف عدن المعادي لعمان بعد ذلك في كل الاجتماعات الدولية والاقليمية . ومع ذلك فقد فتحت عمان أبوابها وما زال شعبها يأمل ، مثلما كان دائماً ، في أن تغير اليمن الجنوبية مسلكها . وليس هناك ما يمنع من أن تعيش في علاقات أخوة وحسن جوار مع عمان .

لكن ذلك ما زال يبدو حلماً بعيداً جداً مادامت اليمن الجنوبية مستمرة في ولائها للنفوذ الأجنبي الذي يملئ عليها سياسته الخمراء .

عهد السلطان قابوس

انتشع الليل الطويل عن عمان في ٢٣ يوليو ١٩٧٠ عندما أشرق الفجر الذي انتظره الشعب طويلاً ليفسح الطريق للشمس المشرقة معلنة تصحيحها الأکید علی أن تشرق فوق عمان إلى الأبد .

وخلال ذلك الليل الطويل عاش شعب عمان داخل بلاده وخارجها يتذوق مرارة الحياة التي كانت لا تفرق بين المتعلم وغير المتعلم ، ولا بين الشاب والكهل - أو بين الرجل والمرأة - لكنها أصابت الجميع أياً كانوا ، وخلال ذلك الليل الطويل تعود العماني أن يعتبر حقائق الحياة خيالات والخيالات حقائق . . حتى دفنت الحقائق في عقله وأصبح يعتقدونها مجرد أحلام وسراب لا يمكن الوصول إليه .

وفي الحقيقة فإن العماني قد عرف الكثير وفهم الفرق بين النظرية والحقيقة . . وبين الطيب والخبيث ، وبين الأقوال والأفعال . ولقد قبل الكثير عن شعب عمان منذ قديم الأزل ، ولكن الكثير سوف يقال عنهم بعد أن تولى السلطان قابوس الحكم ، ولقد كان السلطان قابوس نفسه ضحية لعزلة طويلة . . وعمل من أجل ذلك اليوم الذي يتربى فيه مسئولية أمور البلاد . . فلم يكن يستطيع أن يتحمل طويلاً استمرار الحياة البائسة لشعبه ، ولذلك وقف في يوم ٢٣ يونيو ١٩٧٠ وأعلن لأمتة ، أنه جاء لإنقاذهم ، وليضعهم على قدم المساواة مع شعوب الدول الأخرى المتقدمة في أقرب وقت ممكن . : وشعر شعبه بارتياح عظيم . وكان أول ما فعله جلالة السلطان هو تغيير اسم للبلاد من سلطنة مسقط وعمان إلى سلطنة عمان . . ورغم ما يبدو من بساطة في هذا التغيير إلا أن له معنى سياسياً عميقاً ، ولم تعد البلاد مقسمة بين عمان الداخل والساحل . . أو إلى شمال وجنوب . .

وفي أعقاب تلك الخطوة عمل جلالة السلطان قابوس على الرفاء بوعده .
وبدأ فعلا في تنفيذه ما وعد به . وجرى تغيير ملههله وبتأ شبح الماضى يتلاشى ،
وبلأت البلاد تزحف إلى الأمام بحماس ، وإصرار مدهش ، وفي مقدور أى
إنسان أن يشاهد التقدم الذى حدث فى كل مجالات البلاد .

ولم يكن ذلك بالعمل السهل وبخاصة وأن شبح الشبوعية الخفيف كان ما يزال
يركز نظراته على البلاد .

ورغم أن جلالة السلطان قابوس قد آتت إليه تركة مثقلة من المناعب
والمشاكل لكنها أضافت مذاقا إلى تصميمه القوى على رفع شأن بلاده وشعبه
من زوايا النسيان الذى ظل يحيم عليه لعدد من السنوات إلى عالم الوجود
المتحضر .

وقبل عام ١٩٧٠ لم تكن فى البلاد سوى ثلاث مدارس وكلها للبنين
تضم ٩٠٠ تلميذا . . وكانت هناك مدرسة صغيرة للبعثة الأمريكية بها
خمسون تلميذا وثلاث مدارس صغيرة أخرى للطائفة الحيدريادية فى مطرح
ومدرسة تجارية فنية لموظفى شركة البترول ، وكانت كلها قفرة فى محيط
الأمية .

وكانت الحاجة شديدة للتعليم من أقصى شياك البلاد إلى أقصى جنوبها ،
وكان الناس من كل الأعمار وبعضهم من المتقدمين فى العمر نوعا ما ،
يسرون أمالا للذهاب إلى المدرسة .

وبالتأكيد ، فإن التعليم هو العمود للتمغرى للتنمية ، ثم هناك أيضا
أهمية الصحة ، والمواصلات ، والدفاع ، والمواى ، والمطارات ،
والإسكان إلخ . وتلك قائمة لا تنهى .

ولقد أعطى التعليم والصحة الأولوية القصوى . فبتدىء فى تنميد مشروع
لبناء ثلاث عشر مدرسة ومستشفى ، ثم بدأ العمل فيه فى الحال . وفى

عام ١٩٧٠ كانت هناك ثلاث مستشفيات فقط في البلاد كلها ، اثنتان تديرهما البعثة الأمريكية وواحدة تديرها شركة البترول . كما كانت هناك عيادة ملحقة بالسفارة البريطانية ، وفي داخل البلاد لم تكن هناك غير عيادات صغيرة يديرها أشخاص مدربون كانوا يشنون حرباً بلا هوادة على المرض والجهل ، وعندما زاد عدد المستشفيات كان هناك تركيز على تدريب الشباب العماني ، في الداخل والخارج في مجالات الصحة كأطباء وممرضين ومفتشين صحيين ، ومساعدين للمختبرات .

وفي مجال التعليم كان الهدف الأول هو تعليم أكبر عدد ممكن القراءة والكتابة . ولذلك فإنه بالإضافة إلى ما فعلته وزارة التعليم في مجال التعليم الرسمي فلن جميع الوزارات الأخرى أدخلت مشروعات التدريب المختلفة . كذلك لعبت القوات المسلحة دوراً هاماً ليس في المجال الأكاديمي فقط ، ولكن أيضاً في مجالات علم الصحة وغيره . وفي الحقيقة قد تلقى الشعب دروساً في التعليم ، في المدارس والبيوت والخيام بل وتحت الأشجار .

كذلك تركز الاهتمام على الجيش والقوات الجوية . الرجال والإمدادات والطائرات الخ ، وهذا بالإضافة إلى كثير من قوائم الأولويات المختلفة الوزارات ، وقد انفتحت ميزانيات الوزارات كلها ، وخاصة أنه لم تكن هناك مساعدات تأتي من الدول التي يعتمد أمنها على نتيجة الحرب في ظفار ، ومع ذلك فقد زادت عدداً وقوة ، قوات السلطان المسلحة ، وقوات السلطان الجوية ، ويمكن لعمان اليوم أن تعتبر نفسها في مركز قوى . يسمح لها بحماية حدودها الوطنية ضد أي نوع من أنواع التدخل الأجنبي .

ففي مجال الإقتصاد ، تعلق عمان أهمية كبرى على تنمية الزراعة ، فعمان تعتبر دولة زراعية بعكس الدول المجاورة لها ، وتستثمر الحكومة عائد البترول في القطاع الزراعي .

ويشمل ذلك تحسين الأرض المنزرعة ، وإقامة محطات تجريبية للإرشاد المزارعين ، وتنوع الحاصلات الزراعية ، وتحسين الموارد السمكية ، واستخراج المعادن .

وفي مجال المواصلات تحقق الكثير في شق الطرق ، وبناء الموانئ والمطارات ومكاتب البريد ، وشبكات المواصلات التليفونية التي تستخدم المصالح الوطنية والدولية .

وقد احتلت عمان اليوم مكانها كدولة هامة وسط دول العالم . وهي عضو بالأمم المتحدة ، والجامعة العربية ، ودول عدم الانحياز ، وكثير من المنظمات الدولية .

وتحمل الزراعة والثروة السمكية إمكانيات هائلة وبخاصة وأن ٧٠٪ من السكان - المدين يقدر عددهم بـ ١٥ مليون نسمة - يعتمدون في معيشتهم على هذين القطاعين . وتعطى الحكومة أولوية كبرى لتنميتها على نطاق واسع . فالساحل العماني يمتد مسافة ١٧٠٠ كيلومترا ، وتصدر عمان حالياً الأسماك لبحارها . وقد حدث ذلك نتيجة لأول مشروع جرى تخطيطه لتصدير الأسماك على نطاق واسع . وللحكومة هدف بعيد المدى هو استيعاب طاقة البلاد لتصنيع الأسماك ، وإنشاء الأسطول التجاري العماني . ولقد زودت الحكومة الصيادين بالمحركات الآلية لقوارب الصيد ، أماناً لهم في أداء أعمالهم ، ودفعاً لطاقتهم العملية في الإنتاج وزيادة الثروة السمكية .

وبالنسبة للزراعة ، تهدف الحكومة إلى تحقيق اكتفاء ذاتي في كثير من المنتجات الزراعية بقدر الإمكان .

وهناك هدف بعيد المدى أيضاً وهو تصدير المنتجات الزراعية على نطاق واسع . وسوف يحظى محصول البلح - أهم المنتجات الزراعية

العمانية - باهتمام بالغ ، إلى جانب السلع التقليدية الأخرى مثل اللبغون وجوز الهند ولكن سوف يكون هناك تحول إلى التركيز على مجالات أخرى من المنتجات المربحة مثل الدواجن ، والقمح ، والخضروات .

وما زال التصنيع الزراعي مقصوراً على مصنعين بطاقة إنتاجية تبلغ عشرة آلاف طن في السنة ، وهما مصنع منتجات الألبان ، ومطحن الدقيق . ويصدر فائض إنتاج كل منهما حالياً الدولة الإمارات العربية . ولا شك أن إنتاج هذه المشروعات سوف يخفف بقدر كبير من الواردات الزراعية . وفي الأجل الطويل وعندما يتم التغلب على المشكلات الراهنة . فإن الزراعة وصيد الأسماك سوف تكونان عماد الدخل أكثر مما يمثلها البترول والمعادن .

و مجال الصناعة فإن المشروع الذي يعمل الآن على نطاق واسع هو مصنع الأسمت .

ويوجد مشروع آخر يعمل الآن ، هو خط أنابيب الغاز الممتد من حقول البترول الشمالية إلى الساحل ، وسوف يكون مصنع الأسمت من أكبر المستفيدين منه لأنه يستخدم الغاز . كما أن هذا الخط يغذي محطة تحلية مياه البحر ، ومحطة الكهرباء في منطقة العاصمة . وربما يتم مد خط الأنابيب أيضاً شمالاً إلى جبال صحار لتزويد منطقة مناجم النحاس بالطاقة . كما تم إقامة عدد كبير من المشروعات الأصغر حجماً في نفس الوقت ، تقوم بعمل صناعات خفيفة ، بهدفها إنتاج سلع بديلة للواردات خاصة في مجال الإنشاءات . ومنها مصانع الأثاث ، ومنتجات الألومنيوم ، والمشروبات الخفيفة ، والغازات الصناعية .

ومن المتوقع أن تمضي عمان في الأجل الطويل في تنفيذ مشروعاتها الموجلة في مجال البتروكيمياويات ، مثل مصنع الخصبات الزراعية ، خاصة إذا توافر لها المستوى المرتفع من الدخل عن طريق إضافة دخل المعادن إلى

الدخول الحالى للبتروول . ومن المرجح أن ينعجه التركيز إلى الصناعات ، اعتماداً على مصادر عمان المعدنية غير المستغلة ، فهناك النحاس ، والاسبستوس .

وعمان مشغولة للغاية بمحاولة اكتشاف مزيد من البترول من أجل المحافظة على المستوى العالى للتنمية . ورغم الإنجازات الكبيرة التي تحققت في مجال التنمية ، إلا أنه ما زال هناك الكثير لإنجازه بالنظر إلى الاحتياجات المتديدة للبلاد . وقد بدأت مصادر دخل الحكومة تتسع ، لكن ما زال الاعتماد الأساسي على البترول .

وكان إنتاج عمان من البترول قد هبط من ١٣٩ مليون برميل سنوياً في عام ١٩٧٦ إلى ١١٨ مليون برميل في عام ١٩٧٨ ، لكن الحكومة متفائلة بإمكان إنتاج كميات أكبر في الثمانينات .

وتعتبر الثروة المعدنية بجانب الأكثر إشراقاً بالنسبة لمستقبل الاقتصاد العماني ، بجانب الزراعة والثروة السمكية . وتقدر الاحتياطيات الحالية بـ ١٢ مليون طن ، لكن عمليات التنقيب المقبلة سوف تكشف عن مستودعات أكبر . وقد عثر على مستودعات الكروم ، والزرصاص ، والزنك ، والنيكل ، ونحاس الحديد ، ومعادن أخرى . وعثر في الجبال القريبة من صحار على مستودعات للمنتجنيز وهناك بشائر العثور على الفحم في هذه المنطقة أيضاً .

وفي ظفار اكتشف المنقبون الألمان الغربيون مستودعات للفوسفات .

وهناك اعتماد كبير بأن عمان ستصبح دولة رئيسية في إنتاج المعادن في الثمانينات . وإذا استطاعت عمان أن تنتج الكمية المقدرة وهي ٣٠٠٠ طن من النحاس يومياً في عام ١٩٨٣ ، فلأنها ستصبح بذلك من أكبر الدول المنتجة للنحاس مثل زامبيا وشيلي .

« وليس من شك في أن الروح الدافقة الوثابة ، والنظرة الواحية الصائبة بجلالة السلطان قابوس المعظم لا يد لها أن توتق ثمارها الطيبة ، خيراً وفيراً ، ونهضة شاملة للشعب العماني .

وإن التاريخ ليسجل للشعب العماني نشاطاً محموداً ومذكوراً في شتى المجالات ، يمتد إلى منابت الحضارة الإنسانية الأولى ، وتفرع خصونه على مدى العصور ، مما يؤكد أنه للعمانيين طاقات موقورة ملنخورة ، ستنبثق منها حتماً وثبات قوية مضيئة في مسيرة النهوض الحضاري التي يقودها بفتوة ونشاط جلالة السلطان قابوس آل سعيد .

* * *

راجعه وأشرف على طبعه الأستاذ عبد المنعم عامر

ثبت المراجع

بالإضافة إلى معلوماتي الخاصة وخبراتي فقد رجعت إلى عدد من المصادر التالية :

- تحفة الأعيان تأليف الشيخ سالم بن عبد الله بن حميد السالمي
 - ملكرات الأميرة سالمة، ترجمة عبد الحميد حسيب القيسي سنة ١٩٧٤
 - مسقط وعمان تأليف ، إيان سكيت سنة ١٩٧٤
 - الحكم البرتغال في شرق إفريقيا ، تأليف جاستوس استراندرز ،
سنة ١٩٦١
 - موجز تاريخ الساحل الشرقي لإفريقية، تأليف ل. و. هولنج سوورث
سنة ١٩٢٩
 - العقيدة وقلعة المسيح، تأليف مبارك بن عايط الحناوي ، سنة ١٩٥١
 - البحث عن الماضي ، تأليف كويزي ماك كاستر مارتن ، و ،
اسموند برادلي مارتن ، سنة ١٩٧٣
 - تبسيط تاريخ شرق إفريقيا، تأليف ه. برتن ، و ، ب. ج. ويلي ،
سنة ١٩٦٣
 - عمان في تقرير خاص ، مقدم من ميد سنة ١٩٧٦
- وبالإضافة إلى ذلك رجعت إلى تقارير عديدة كتبت عن الصحوة السياسية.
ونائج الانتخابات التي أجريت في زنجبار عند إعداد مخطوطة هذا الكتاب :

محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع
٥	تقديم
١٤	الماضى
١٧	عصر ما قبل العرب
١٩	قدوم العرب إلى عمان
٤١	العرب في شرقي أفريقيا
٤٧	قدوم البرتغاليين إلى شرقي أفريقيا
٥٧	البرتغاليون في عمان
٦١	اضمحلال البرتغاليين
٦٩	ظهور أسرة البوسعيد
٧٧	مباشرة وحصن يسوع
٨١	لامو وباني
٨٩	الحملة المناهضة للرق
٩٥	الاسلام والمسيحية في شرقي أفريقيا
٩٩	زنجبار أثناء فترة الحماية البريطانية
١٠٣	لماذا الثورة في زنجبار ؟
١١٧	عمان وعهد ما قبل قابوس
١٢٩	التمرد في ظفار
١٤٧	وساطة الدول الشقيقة
١٤٩	عهد السلطان قابوس

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٤٢ لسنة ١٩٨٠

مطابع سجل العرب
٩ شارع سراج العزيم - ته ٩٣٢٧٠٦

To: www.al-mostafa.com